الْبَابُ الأَوَّلُ:
(بَيْنَ يَدَيِ الْبَعْثَةِ)

وفِيْهِ ثَلاثَةُ فُصُولٍ:

الْفَصْلُ الأَوَّلُ: أَحْوَالُ الْعَرَبِ قَبْلَ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَصْلُ الثَّانِي: أُسُس الْبِنَاءِ فِي دَعْوَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الْفَصْلُ الثَّالِثُ: مَلامِحُ عُلُوِّ قَدْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وإكرام الله تعالى لأمته.

الْفَصْلُ الأَوَّلُ

أَحْوَالُ الْعَرَبِ قَبْلَ رِسَالَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أجمع المؤرخون على أن العالم الإنساني عامة، والعالم العربي خاصة كان يعيش في دياجير الظلماتِ المتراكمة، ظلماتِ الجهل والظلم والاستبداد، تتنازع القوةَ فيه الإمْبرَاطُورِيَّتَانِ الغاشِمَتَانِ، الفارسيَّةُ شَرْقا والرُّومَانِيَّةُ غَرْبا، يُشِيرُ إِلَى ذَلِكَ قَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ وَإِنَّ اللهَ تَعَالَى نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ }**(١).

فَالظُّلْمُ كانَ مُسَيْطِرًا، وَالْفَسَادُ مُنْتَشِرًا، خَاصَّةً فِي الْقُوَّتَيْنِ الْعُظْمَيَيْنِ آنَذَاكَ (فَارِس– الروم). وَلَمْ يَكُنِ الْعَرَبُ أَحْسَنَ حَالا مِمَّنْ حَوْلَهُمْ؛ فقد عاشوا فترة طويلة جدًّا بدون وحي إلهي، أو من يحمله لهم، وهي الفترة التي كانت بين النبيِّ الكريم إسماعيل عَلَيْهِ السَّلَامُ والنبيِّ الخاتم محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، لذا فقد كانوا يفشُو فيهم بعض العادات السيئة ، إلى جانب اتصافهم في الوقت نفسه ببعض العادات الحسنة، إلا أن الأخيرة قد خفيت وضعف تأثيرها بجانب ما كان لديهم من العادات السيئة، ومن ذلك :(٢)

- الْقِمَارِ وَشُرْبِ الْخَمْرِ ، وَالِاجْتِمَاعِ عَلَيْهِما.

---

١) رواه مسلم ، برقم (٢٨٦٥).

٢) "هذا الحبيب يا محب" أبو بكر الجزائري ، ص (٢٦) ، وما بعدها.

• وَأْدِ الْبَنَاتِ: فَقَدْ كَانَ بَعْضُهُمْ يَدْفِنَ ابْنَتَهُ -بَعْدَ وِلَادَتِهَا- حَيَّةً فِي التُّرَابِ ؛ خَوْفَ الْعَارِ.

• قَتْلِ الْأَوْلَادِ مُطْلَقًا، ذُكُورًا وَإِنَاثًا؛ وَذَلِكَ عِنْدَ وُجُودِ فَقْرٍ ، أَوْ لِمُجَرَّدِ تَوَقُّعِهِ.

• تَبَرُّجِ النِّسَاءِ: فَقَدْ كَانَتِ الْمَرْأَةُ تَخْرُجُ كَاشِفَةً عَنْ مَحَاسِنِهَا، مَارَّةً بِالرِّجَالِ الْأَجَانِبِ، مُتَكَسِّرَةً فِي مِشْيَتِهَا، كَأَنَّهَا تَعْرِضُ نَفْسَهَا وَتُغْرِي بِهَا غَيْرَهَا.

• نِكَاحِ الِاسْتِبْضَاعِ: وَذَلِكَ بَعْدَ أَنْ تَطْهُرَ الْمَرْأَةُ يُطْلَبُ لَهَا أَشْرَفُ الرِّجَالِ وَخِيَارُهُمْ نَسَبا وَأَدَبا؛ لِيَطَأَهَا مِنْ أَجْلِ أَنْ تُنْجِبَ وَلَدا يَرِثُ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي يَحْمِلُهَا ذَلِكَ الْوَاطِئُ لَهَا.

• إِعْلَانِ الْإِمَاءِ عَنِ الْبَغِي بِهِنَّ: وَذَلِكَ بِأَنْ تَجْعَلَ إِحْدَاهُنَّ رَايَةً عَلَى بَابِ مَنْزِلِهَا لِيُعْرَفَ أَنَّهَا بَغِيٌّ (زَانِيَةٌ) وَيَأْتِيَهَا الرِّجَالُ، وَتَأْخُذَ عَلَى ذَلِكَ أَجْرًا مُقَابِلَ الزِّنا.

• الْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ: فَالْوَلَاءُ كَانَ لِلْقَبِيلَةِ فِي الْحَقِّ أَوِ الْبَاطِلِ.

• شَنِّ الْغَارَاتِ وَالْحُرُوبِ لِأَتْفَهِ الْأَسْبَابِ، كَمَا هُوَ الشَّأْنُ فِي حَرْبِ (دَاحِس وَالْغَبْرَاءَ). وَحَرْبِ (الْبَسُوسِ).

• عَدَمِ الِامْتِهَانِ تَكَبُّرًا وَأَنَفَةً؛ إِذْ كَانُوا لَا يَمْتَهِنُونَ الْحِدَادَةَ وَالْحِيَاكَةَ وَالْحِجَامَةَ وَالْفِلَاحَةَ، وَإِنَّمَا يُسْنِدُونَ هَذِهِ الْمِهَنَ لِإِمَائِهِمْ وَعَبِيدِهِمْ، أَمَّا الْأَحْرَارُ فَحَسْبُهُمُ التِّجَارَةُ، وَرُكُوبُ الْخَيْلِ، وَشَنُّ الْغَارَاتِ، وَإِنْشَادُ الشِّعْرِ، وَالْمُفَاخَرَةُ بِالْأَحْسَابِ وَالْأَنْسَابِ.

وَمَعَ ذَلِكَ كَانَ فِي هَذَا الْمُجْتَمَعِ وَمَضَاتُ خَيْرٍ، مِثْلُ:

١- صِدْقِ الْحَدِيثِ.

٢- إِكْرَامِ الضَّيْفِ.

٣- الْوَفَاءِ بِالْعُهُودِ.

٤- احْتِرَامِ الْجِوَارِ.

٥- الصَّبْرِ وَالتَّحَمُّلِ.

٦- الشَّجَاعَةِ وَالنَّجْدَةِ.

٧- الْأَنَفَةِ وَعَدَمِ قَبُولِ الذُّلِّ وَالْمَهَانَةِ.

٨- احْتِرَامِ الْحَرَمِ وَالْأَشْهُرِ الْحُرُمِ، بِعَدَمِ الْقِتَالِ فِيهَا إِلَّا مِنْ ضَرُورَةٍ، وَتَأْمِينِ الْوَافِدِينَ إِلَى الْحَرَمِ، وَلَوْ كَانُوا ذَوِي سَوَابِقَ فِي الشَّرِّ.

٩- تحريمهم نكاح الأمهات والبنات.

١٠- الِاسْتِنْجَاءِ والاغْتِسَالِ مِنَ الْجَنَابَةِ.

١١- الْمُدَاوَمَةِ عَلَى الْمَضْمَضَةِ وَالِاسْتِنْشَاقِ.

١٢- استعمال السِّوَاكِ وَتَقْلِيمِ الْأَظَافِرِ وَنَتْفِ الْإِبِطِ.

١٣- خِتَانِ الذُّكُورِ وَالْإِنَاثِ.

١٤- أداءِ الْحَجِّ وَالْعُمْرَةَ.

* **حِكْمَةٌ رَبَّانِيَّةٌ**:

وَقَدِ اخْتَارَ اللهُ تَعَالَى الْعَرَبَ لِيَتَلَقَّوْا هَذِهِ الدَّعْوَةَ أَوَّلًا، ثُمَّ يُبَلِّغُوهَا إِلَى النَّاسِ

جَمِيعًا؛ لِأَنَّهُمْ كَانُوا أَصْفَى النَّاسِ قُلُوبًا إِذَا قُورِنُوا بِغَيْرِهِمْ مِنَ الرُّومِ وَالْفُرْسِ وَأَهْلِ الْهِنْدِ، الَّذِينَ كَانُوا يَتِيهُونَ بِعُلُومِهِمْ وَآدَابِهِمْ،وَفَلْسَفَاتِهِمُ الْوَاسِعَةِ، فَالْعَرَبُ لَمْ تَكُنْ عَلَى أَلْوَاحِ قُلُوبِهِمْ إِلَّا كِتَابَاتٌ بَسِيطَةٌ خَطَّتْهَا يَدُ الْجَهْلِ وَالْبَدَاوَةِ، فَكَانَ مِنَ السَّهْلِ مَحْوُهَا، وَرَسْمُ أُخْرَى صَالِحَةٍ مَكَانَهَا.

وَكَانُ الْعَرَبُ عَلَى الْفِطْرَةِ، وَأَصْحَابَ إِرَادَةٍ قَوِيَّةٍ، إِذَا الْتَوَى عَلَيْهِمْ فَهْمُ الْحَقِّ حَارَبُوهُ، وَإِذَا انْكَشَفَ الْغِطَاءُ عَنْ عُيُونِهِمْ أَحَبُّوهُ، وَاحْتَضَنُوهُ، وَاسْتَمَاتُوا فِي سَبِيلِهِ(١).

* **اخْتِيَارُ النَّبِيِّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **وَإِعْدَادُهُ** :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ **اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ** ﴾(الأنعام:١٢٤).

نَزَلَ الْإِنْسَانُ إِلَى الْأَرْضِ مُحَاطًا بِرِعَايَةِ اللهِ، فَلَقَدْ أُعْطِيَ طَاقَاتٍ وَمَوَاهِبَ كَثِيرَةً، وَسُخِّرَ لَهُ كُلُّ شَيْءٍ مِنْ حَوْلِهِ.. وَتَعَهَّدَهُ اللهُ بِإِرْسَالِ الرُّسُلِ، وَإِنْزَالِ الْهُدَى كُلَّمَا طَالَ عَلَيْهِ الْعَهْدُ وَضَلَّ فِي الْمُتَاهَاتِ.. أَذِنَ اللهُ سُبْحَانَهُ أَنْ يُرْسِلَ إِلَيْهِ آخِرَ وَصَايَاهُ إِلَى الْأَرْضِ، وَلَكِنْ مِنَ الْأَقْوَامِ وَالْبُلْدَانِ.

وَلَا شَكَّ فِي أَنَّ لِلْبِيئَةِ – الْمَكَانِ وَالزَّمَانِ وَحَالَةِ النَّاسِ – أَثَرًا كَبِيرًا فِي نَجَاحِ الدَّعْوَةِ وَالدَّاعِي وَإِيصَالِ الرِّسَالَةِ إِلَى النَّاسِ، وَلَقَدِ اخْتَارَ اللهُ الْعَرَبَ وَجَزِيرَتَهُمْ لِتَكُونَ مَحْضَنًا لِآخِرِ الرِّسَالَاتِ.

---

١) انظر كتاب "السيرة النبوية" لأبي الحسن الندوي، بتصرف. ص (٨٧).

فَالْجَزِيرَةُ الْعَرَبِيَّةُ هِيَ مَرْكَزُ الِاتِصَالَاتِ بَيْنَ الشَّرْقِ وَالْغَرْبِ وَالشَّمَالِ وَالْجَنُوبِ. وَلَعَلَّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَسْبَابِ احْتِرَافِ كَثِيرٍ مِنْ أَهْلِهَا لِلتِّجَارَةِ، وَفِيهَا مَكَّةُ وَالْبَيْتُ الْحَرَامُ، وَهِيَ الْبُقْعَةُ الْمُبَارَكَةُ مِنَ الْأَرْضِ الَّتِي حَمَاهَا اللهُ مِنْ أَنْ تَخْضَعَ لِسُلْطَانِ الْفُرْسِ أَوِ الرُّومِ، وَمَنَعَهَا مِنْ أَصْحَابِ الْفِيلِ – أَبْرَهَةَ الْحَبَشِيِّ – فَبَقِيَ أَهْلُهَا وَمُعْظَمُ أَهْلِ الْجَزِيرَةِ أَحْرَارًا لَا سُلْطَانَ لِأَحَدٍ عَلَيْهِمْ؛ مِمَّا يُعْطِي لِلدَّاعِي مَجَالا طَيِّبًا لِلْحَرَكَةِ، وَيَمْنَحُ الْعَرَبَ حُرِّيَّةَ التَّفْكِيرِ وَالِاخْتِيَارِ، كَمَا أَنَّ لِلصَّحْرَاءِ امْتِيَازًا عَلَى الْحَضَرِ، لِبُعْدِهَا عَنِ التَّرَفِ الَّذِي يُسْدِلُ سِتَارَ اللَّهْوِ وَالْغَفْلَةِ عَلَى الْفِكْرِ، فَهِيَ تَفْرِضُ حَيَاةَ الْجِدِّ وَالتَّأَمُّلِ وَالْكَدِّ عَلَى سَاكِنِيهَا لِتَحْصِيلِ الْكَفَافِ.

وَكَانَ الْعَرَبُ بُسَطَاءَ عَلَى الْفِطْرَةِ.. عُقُولُهُمْ صَافِيَةٌ لَمْ تُشَوِّشْهَا النَّظَرِيَّاتُ وَالْفَلْسَفَاتُ،وَلَمْ يَخُوضُوا تَجْرِبَةَ الدَّوْرَةِ الْحَضَارِيَّةِ كَالْفُرْسِ وَالرُّومِ الَّذِينَ كَانَتْ طَاقَاتُهُمْ قَدِ اسْتُهْلِكَتْ، وَدَخَلُوا فِي مَرْحَلَةِ الِانْحِدَارِ وَالْإِفْلَاسِ، وَرَحِمَ اللهُ (مَالِكَ بْنَ نَبِي) الَّذِي شَبَّهَ الْعَرَبَ فِي تِلْكَ الْمَرْحَلَةِ بِقَطْرَةِ الْمَاءِ الَّتِي لَمْ تَدْخُلْ بَعْدُ إِلَى الشَّلَّالِ.. فَهِيَ تَحْمِلُ فِي جَوَانِحِهَا قُوَّةً.. بَيْنَمَا ذَرَّةُ الْمَاءِ بَعْدَ الشَّلَّالِ قَدْ فَقَدَتْ كُلَّ طَاقَتِهَا، وَلَا بُدَّ مِنْ تَعْرِيضِهَا لِمُؤَثِّرَاتٍ جَدِيدَةٍ لِشَحْنِهَا، وَلَقَدْ كَانَ الْعَرَبِيُّ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ هُوَ إِنْسَانُ مَا قَبْلَ الْحَضَارَةِ.. كَالْمَادَّةِ الْخَامِ يُمْكِنُ تَصْنِيعُهَا وَتَنْظِيمُ مَا فِيهَا مِنْ طَاقَاتٍ.. وَأَمَّا فَارِسُ وَالرُّومُ فَقَدْ كَانُوا فِي مَرْحَلَةِ مَا بَعْدَ الْحَضَارَةِ.. كَالْقِمَاشِ الْبَالِي.. فَلَا عَجَبَ أَنْ يَكُونَ الْعَرَبُ هُمُ الْمُخْتَارِينَ.

وَأَمَّا الزَّمَانُ.. فَلَقَدْ مَضَى عَلَى آخِرِ نَبِيٍّ فِي ذَلِكَ الْحِينِ – عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ – مَا يُقَارِبُ سِتَّةَ قُرُونٍ.. وَقَدْ حُرِّفَتِ الْأَدْيَانُ، وَتَفَرَّقَ أَتْبَاعُهَا، وَتَنَازَعُوا حَتَّى عَجَزُوا عَنْ هِدَايَةِ النَّاسِ وَإِنْقَاذِهِمْ.. وَبَدَتِ الْبَشَرِيَّةُ بِحَاجَةٍ إِلَى دِينٍ يُثَبِّتُ أَقْدَامَهَا، وَيَأْخُذُ بِيَدِهَا

إِلَى الْهُدَى وَالنُّورِ. وَهَكَذَا هَيَّأَ اللهُ ظُرُوفَ الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْأُمَّةِ لِبَعْثَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَإِنَّ قَارِئَ تَارِيخِ تِلْكَ الْحِقْبَةِ يَشْعُرُ كَأَنَّ كُلَّ شَيْءٍ كَانَ فِي حَالَةِ تَوَجُّسٍ وَتَرَقُّبٍ.. وَالنَّاسُ يَتَحَدَّثُونَ عَنْ نَبِيٍّ أَهَلَّ زَمَانُهُ .. وَالْأَرْضُ عَطْشَى لِنُزُولِ الْوَحْيِ مِنَ السَّمَاءِ.. وَإِنِّي لَأَجِدُ فِي الْأَخْبَارِ الَّتِي تَتَحَدَّثُ عَنْ سَلَامِ الشَّجَرِ وَالْحَجَرِ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ .. ثَوْرَةً رَمْزِيَّةً لِلظَّمَأِ الَّذِي كَانَ يَجْتَاحُ الْأَرْضَ .. تَلَهُّفًا إِلَى إِطْلَالَةِ نَبِيٍّ .. وَرذَاذِ وَحْيٍ مِنَ السَّمَاءِ، يَرْحَمُ الْأَرْضَ، وَيَهْدِي أَهْلَهَا.

• الصفات التي كانت يتمتَّع بها النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قبل بعثته :

وَأَوَّلُ مَا يَنْبَغِي الْوُقُوفُ عِنْدَهُ هُوَ: الْوَضْعُ الَّذِي كَانَ يَتَمَتَّعُ بِهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُبَيْلَ تَكْلِيفِهِ بِالدَّعْوَةِ، وَمَا كَانَ يَمْلِكُهُ مِنْ رَصِيدٍ – أَوْ رَأْسِ مَالٍ – يَدْخُلُ بِهِ إِلَى مَيْدَانِ التَّغْيِيرِ الْفِكْرِيِّ وَالثَّقَافِيِّ.

١- رَصِيدٌ فِي النَّسَبِ :

كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ أَشْرَافِ قَوْمِهِ، وَمِنْ أَحْسَنِهِمْ نَسَبًا، وَقَدْ كَانَتِ الْعَرَبُ تُقِيمُ لِلنَّسَبِ وَزْنًا كَبِيرًا.

وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ اصْطَفَى كِنَانَةَ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيلَ، وَاصْطَفَى قُرَيْشًا مِنْ كِنَانَةَ، وَاصْطَفَى مِنْ قُرَيْشٍ بَنِي هَاشِمٍ، وَاصْطَفَانِي مِنْ بَنِي هَاشِمٍ }**[1]، وَالْوِرَاثَةُ لَهَا جَانِبَانِ:

---

١) رواه مسلم برقم (٢٢٧٦).

أ- وِرَاثَةٌ بِالنَّسَبِ (الْجِينَاتِ).

ب- وِرَاثَةٌ ثَقَافِيَّةٌ فِكْرِيَّةٌ يَكْتَسِبُ فِيهَا الْمَوْلُودُ أَفْكَارَ عَائِلَتِهِ وَأَخْلَاقَهَا.. خَيْرَهَا وَشَرَّهَا.

وَالْحَدِيثُ يَصِفُ لَنَا كَيْفَ أُعِدَّ النَّبِيُّ، وَكَيْفَ كُرِّرَ اصْطِفَاؤُهُ مِرَارًا.. فِي النَّسَبِ وَالْخُلُقِ.. وَتَمَّ ذَلِكَ الاصْطِفَاءُ عَبْرَ أَرْبَعِ مَرَاحِلَ.. حَتَّى كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ صَفْوَةُ الصَّفْوَةِ مِنْ عِبَادِ اللهِ، خَلْقًا وخُلُقًا.

وَإِنَّمَا أُعْطِيَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الِامْتِيَازُ فِي النَّسَبِ؛ لِأَنَّ هَذَا مَا كَانَ يُنَاسِبُ قَوْمَهُ وَعَصْرَهُ.

٢- رَصِيدٌ نَفْسِيٌّ :

وُلِدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتِيمَ الْأَبِ، وَلَمْ يَلْبَثْ أَنْ أَصْبَحَ رَضِيعًا فِي بَنِي سَعْدٍ، فَنَشَأَ فِي الصَّحْرَاءِ وَدَرَجَ فَوْقَ رِمَالِهَا. وَعَادَ مِنْهَا لِيُدْرِكَ مَعْنَى الْيُتْمِ فِي الْأَبِ وَالْأُمِّ وَالْجَدِّ.. ذَاكَ الْجَدُّ الَّذِي جَعَلَتْهُ قُرَيْشٌ لَهَا سَيِّدًا.. تَنْتَهِي إِلَيْهِ الْمَكَارِمُ ، وَيَلُوذُ بِحِكْمَتِهِ الْمُتَخَاصِمُونَ.

إِنَّهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ سَيِّدُ قُرَيْشٍ..

وَلَقَدْ تَوَسَّمَ (عَبْدُ الْمُطَّلِبِ) فِي النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ النُّبْلَ وَالسِّيَادَةَ؛ لِهَذَا مَنَحَهُ مِنَ الْحُبِّ الْكَثِيرَ.. لَكِنَّ الْجَدَّ مَضَى.. وَكَادَ قَلْبُ الطِّفْلِ يَنْفَطِرُ، وَهُوَ يَتَلَفَّتُ حَوْلَهُ بَاحِثًا عَنْ مَخْرَجٍ مِنْ طَوْقِ الْيُتْمِ الَّذِي أَحَاطَ بِهِ، فَيُسْرِعُ الْعَمُّ أَبُو طَالِبٍ إِلَيْهِ فَيَضُمُّهُ إِلَى صَدْرِهِ وَعِيَالِهِ.

وَكَانَ أَبُو طَالِبٍ وَرِيثَ أَبِيهِ فِي الشَّرَفِ وَالسِّيَادَةِ، فَلَمَّا شَبَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَمِلَ مَعَ عَمِّهِ فِي التِّجَارَةِ.. وَرَأَى كَيْفَ يَتَعَامَلُ النَّاسُ بِالدِّرْهَمِ وَالدِّينَارِ، حَيْثُ تَظْهَرُ مَعَادِنُهُمْ وَأَخْلَاقُهُمْ، وَتَعَلَّمَ كَيْفَ يَخُوضُ الْأَسْوَاقَ فَلَا يَتَلَوَّثُ، وَيُصَافِحُ الدُّنْيَا، فَيَدْخُلُ طَاهِرًا وَيَخْرُجُ طَاهِرًا، حَتَّى عُرِفَ بَيْنَهُمْ بِالصِّدْقِ وَالْأَمَانَةِ.

وَعِنْدَمَا شَبَّ وَاشْتَدَّ عُودُهُ عُرِفَ بَيْنَ قَوْمِهِ بِالْحِكْمَةِ وَرَجَاحَةِ الْعَقْلِ.. حَتَّى إِنَّهُمْ فَرِحُوا بِتَحْكِيمِهِ عِنْدَمَا اخْتَلَفُوا فِي حَمْلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ فِي أَثْنَاءِ تَجْدِيدِهِمْ لِبِنَاءِ الْكَعْبَةِ.. وَقَدْ كَادُوا يَقْتَتِلُونَ، حَتَّى اقْتَرَحَ أَحَدُهُمْ أَنْ يُحَكِّمُوا بَيْنَهُمْ أَوَّلَ دَاخِلٍ عَلَيْهِمْ.. فَدَخَلَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالُوا: { **هَذَا الْأَمِينُ، رَضِينَا بِهِ حَكَمًا، هَذَا مُحَمَّدٌ** }(١)، وَاسْتَطَاعَ بِذَكَائِهِ وَحِكْمَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنْ يَقْتَرِحَ حَلًّا يُرْضِي الْجَمِيعَ، فَطَرَحَ ثَوْبَهُ، وَوَضَعَ الْحَجَرَ عَلَيْهِ، وَجَعَلَهُمْ يَشْتَرِكُونَ فِي شَرَفِ حَمْلِ الْحَجَرِ الْأَسْوَدِ بِرَفْعِ الثَّوْبِ مِنْ جَمِيعِ أَطْرَافِهِ (٢).

وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَغْمَ رَفْضِهِ لِأَصْنَامِ قَوْمِهِ، فَإِنَّهُ لَمْ يُهَاجِمْ أَوْ يَنْتَقِدْ أَحَدًا عَلَى عِبَادَتِهَا – قَبْلَ أَنْ يَنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ – وَلَمْ تُتَحْ لَهُ فُرْصَةٌ لِلِاطِّلَاعِ عَلَى الْأَدْيَانِ الْأُخْرَى الَّتِي كَانَ يَدِينُ بِهَا النَّاسُ؛ لِأَنَّهُ كَانَ أُمِّيًّا، وَلَقَدْ صَرَفَهُ اللهُ عَنْ ذَلِكَ حَتَّى لَا يُتَّهَمَ بِأَنَّهُ اقْتَبَسَ دِينَهُ مِنَ الْآخَرِينَ، لَكِنَّ مَسْأَلَةَ (الدِّينِ الْحَقِّ) كَانَتْ شُغْلَهُ الشَّاغِلَ، خَاصَّةً عِنْدَمَا بَلَغَ الْأَرْبَعِينَ، فَقَدْ أَصْبَحَ يَنْطَلِقُ بَعِيدًا عَنِ النَّاسِ إِلَى غَارِ

---

١) رواه الحاكم بنحوه برقم (١٦٨٣)، وقال: هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ مُسْلِمٍ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ.
٢) راجع الحادثة بكتاب "البداية والنهاية" لابن كثير (٢/ ٣٧٠- ٣٧١).

حِرَاءَ يَتَحَنَّثُ، وَيَتَفَكَّرُ، بَاحِثًا عَنِ الرَّبِّ الْحَقِيقِيِّ. هُنَاكَ كَانَ يَقْضِي الْأَيَّامَ وَاللَّيَالِيَ، وَكَأَنَّهُ أَحَسَّ بِأَنَّهُ يَنْبَغِي أَنْ يَتَفَرَّغَ لِإِيجَادِ حَلٍّ لِهَذِهِ الْمُعْضِلَةِ، وَإِلَّا فَمَنْ يُمْكِنُ أَنْ يُعْطِيَهُ الْجَوَابَ؟!

وَجَاءَهُ الْجَوَابُ أَخِيرًا بِنُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ وَهُوَ فِي سِنِّ الْأَرْبَعِينَ؛ سِنِّ نُضْجِ الشَّبَابِ، بَعِيدًا عَنْ طَيْشِ الْحَدَاثَةِ، وَعَنْ سِنِّ الْهَرَمِ وَالِانْحِدَارِ، فَلَا يُتَّهَمُ بِالتَّخْرِيفِ وَالِاخْتِلَاطِ، لَقَدْ كَانَ سِنًّا مِثَالِيًّا يَتَأَلَّقُ فِيهِ الْفِكْرُ، وَتَنْضُجُ فِيهِ الْخِبْرَاتُ، وَتَتَوَازَنُ عِنْدَهُ الشَّخْصِيَّةُ.

٣، ٤- رَصِيدٌ أَخْلَاقِيٌّ، ورَصِيدٌ اجْتِمَاعِيٌّ:

وَفِي هَذَا الْمَجَالِ كَانَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قِمَّةً سَامِقَةً لَا يُدَانِيهَا فِي الطُّهْرِ أَحَدٌ.. فَقَدْ عُرِفَ بِالطَّهَارَةِ فَلَمْ يُقَارِبْ فَاحِشَةً قَطُّ، وَلَمْ يَشْرَبْ خَمْرًا فِي حَيَاتِهِ، وَلَمْ يُقَارِبْ مَا كَانَ يَتَهَافَتُ عَلَيْهِ شَبَابُ مَكَّةَ مِنْ مَجَالِسِ اللَّهْوِ وَالْغِنَاءِ، مُسْتَقِيمًا عَفِيفًا سَلِيمَ الطَّوِيَّةِ، لَمْ يُدَنِّسْهُ مَكْرٌ أَوْ غَدْرٌ، حَتَّى لُقِّبَ فِي قَوْمِهِ بِالصَّادِقِ الْأَمِينِ.

اسْتَأْمَنَهُ قَوْمُهُ عَلَى تِجَارَتِهِمْ.. ثُمَّ اسْتَوْدَعُوهُ كُلَّ مَا يَخْشَوْنَ ضَيَاعَهُ مِنْ نَفِيسِ أَمْوَالِهِمْ، وَاسْتَمَرُّوا فِي وَضْعِ الْوَدَائِعِ عِنْدَهُ، حَتَّى بَعْدَ أَنْ أَعْلَنَ رِسَالَتَهُ وَنَاصَبُوهُ الْعَدَاءَ، وَبَقِيَ هَذَا شَأْنَهُمْ إِلَى يَوْمِ هِجْرَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. حَيْثُ تَآمَرُوا عَلَى قَتْلِهِ، وَهُوَ يُفَكِّرُ فِي خُطَّةٍ يَرُدُّ لَهُمْ فِيهَا وَدَائِعَهُمْ دُونَ أَنْ يَقَعَ فِي أَيْدِيهِمْ.

وَيَصِفُ عَبْدُ اللهِ بْنُ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا مَوْقِفًا اجْتَمَعَ فِيهِ أَشْرَافُ قُرَيْشٍ فِي الْحِجْرِ، وَقَالُوا: مَا رَأَيْنَا مِثْلَ مَا صَبَرْنَا عَلَيْهِ مِنْ هَذَا الرَّجُلِ - يَقْصِدُونَ النَّبِيَّ - سَفَّهَ أَحْلَامَنَا، وَعَابَ دِينَنَا.. فَبَيْنَمَا هُمْ فِي ذَلِكَ طَلَعَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَأَقْبَلَ

يَمْشِي حَتَّى اسْتَلَمَ الرُّكْنَ، ثُمَّ مَرَّ بِهِمْ طَائِفًا بِالْبَيْتِ، فَغَمَزُوهُ بِبَعْضِ الْقَوْلِ، فَعَرَفْتُ ذَلِكَ فِي وَجْهِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَضَى.. فَلَمَّا مَرَّ بِهِمُ الثَّانِيَةَ غَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا، فَعَرَفْتُهَا فِي وَجْهِهِ فَمَضَى.. فَمَرَّ بِهِمُ الثَّالِثَةَ فَغَمَزُوهُ بِمِثْلِهَا. فَقَالَ: { **أَتَسْمَعُونَ يَا مَعْشَرَ قُرَيْشٍ؟ أَمَا وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَقَدْ جِئْتُكُمْ بِالذَّبْحِ** }. فَخَافَ الْقَوْمُ حَتَّى إِنَّ أَشَدَّهُمْ عَلَيْهِ.. لَيَقُولُ: انْصَرِفْ أَبَا الْقَاسِمِ رَاشِدًا فَمَا كُنْتَ بِجَهُولٍ(١).

فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الشَّهَادَةِ مِنْ أَعْدَائِهِ: مَا كُنْتَ بِجَهُولٍ؟!

وَكَانَ حُلْوَ الْمَعْشَرِ، جَمِيلَ الْمُعَامَلَةِ، كَمَا أَخْبَرَتْ عَنْ ذَلِكَ خَدِيجَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا عِنْدَمَا عَادَ إِلَيْهَا خَائِفًا مِنْ نُزُولِ الْوَحْيِ عَلَيْهِ.. قالت: { **كَلَّا، أَبْشِرْ فَوَاللهِ لاَ يُخْزِيكَ اللهُ أَبَدًا ، فَوَاللهِ إِنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ ، وَتَصْدُقُ الحَدِيثَ ، وَتَحْمِلُ الكَلَّ ، وتَكْسِبُ الْمَعْدُومَ ، وَتَقْرِي الضَّيْفَ ، وَتُعِينُ عَلَى نَوَائِبِ الْحَقِّ** }(٢).

وَقِصَّتُهُ مَعَ زَيْدِ بْنِ حَارِثَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَشْهُورَةٌ، إِذْ أَغَارَتْ خَيْلٌ عَلَى قَوْمِ زَيْدٍ، فَأَخَذُوهُ وَكَانَ طِفْلًا، فَبِيعَ فِي الْأَسْوَاقِ، حَتَّى وَصَلَ إِلَى خَدِيجَةَ بِنْتِ خُوَيْلِدٍ.. فَرَآهُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَبْدَى إِعْجَابَهُ بِهِ، فَوَهَبَتْهُ خَدِيجَةُ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْطَلَقَ أَبُوهُ يَبْحَثُ عَنْهُ وَيَسْأَلُ حَتَّى وَصَلَ إِلَى النبيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَعَرَضَ عَلَيْهِ أَنْ يَشْتَرِيَهُ مِنْهُ.. لَكِنَّ النبيَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَرَكَ الْخِيَارَ لِزَيْدٍ فِي أَنْ يَذْهَبَ مَعَ أَبِيهِ،

---

١) رواه أحمد برقم (٧٠٣٦)، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٥٦٧)، وأورده الألباني في صحيح السيرة (١/ ١٤٨).

٢) متفق عليه: البخاري برقم (٤٩٥٣)، ومسلم برقم (٢٥٢).

أَوْ يَبْقَى عِنْدَهُ.. فَاخْتَارَ زَيْدٌ الْبَقَاءَ مَعَ النبيِّ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَلَوْ كَانَ عَبْدًا..!! فَأَعْتَقَهُ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ وَتَبَنَّاهُ (١).. كُلُّ ذَلِكَ حَدَثَ قَبْلَ الْبَعْثَةِ.

لَقَدْ كَانَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ يَعْرِفُ كَيْفَ يَمْلِكُ الْقُلُوبَ؛لِأَنَّهُ يَعْرِفُ كَيْفَ يُحِبُّ.. وَكَيْفَ يُعَبِّرُ عَنْ حُبِّهِ لِلآخَرِينَ.. يَهْتَمُّ لِهُمُومِهِمْ، وَيَتَوَدَّدُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يَبْخَلُ بِكَلِمَةٍ طَيِّبَةٍ لِكُلِّ أَحَدٍ.

٥- رَصِيدُ الْعَصَبِيَّةِ الْقَبَلِيَّةِ بينَ قَوْمِهِ:

لَقَدْ كَانَ قَانُونُ الْحِمَايَةِ فِي أَرْضِ الْعَرَبِ نُصْرَةَ الْعَشِيرَةِ وَالْقَبِيلَةِ، وَهُوَ أَمْرٌ أَكَّدَتْهُ الْأَشْعَارُ، وَالْأَمْثَالُ الْعَرَبِيَّةُ: { انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا }(٢)، حَتَّى صَحَّحَ الرَّسُولُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هَذَا الْمَفْهُومَ مبيِّنًا بِأَنَّ نُصْرَةَ الظَّالِمِ: هِيَ مَنْعُهُ مِنَ الظُّلْمِ.

وَعَلَى هَذِهِ الْعَصَبِيَّةِ ضُبِطَتْ حَيَاةُ الْعَرَبِ، وَحَصَلَ الْفَرْدُ عَلَى الضَّمَانِ الْأَمْنِيِّ. أَمَّا مَنْ كَانَ غَرِيبًا، أَوْ لَمْ تَكُنْ لَهُ عَشِيرَةٌ قَوِيَّةٌ، فَقَدْ كَانَ يَلْجَأُ إِلَى أَحَدِ السَّادَةِ الْأَشْرَافِ وَيَدْخُلُ فِي جِوَارِهِ(٣).. فَيَقُومُ السَّيِّدُ بِإِشْهَادِ النَّاسِ عَلَى ذَلِكَ، وَيَحْصُلُ الْغَرِيبُ أَوِ الضَّعِيفُ عَلَى الْأَمْنِ.

وَأَمَّا النبيُّ مُحَمَّدٌ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ فَقَدْ كَانَ مِنْ عَشِيرَةٍ عَزِيزَةٍ لَا يَجْرُؤُ الْعَرَبُ عَلَى الِاعْتِدَاءِ عَلَيْهَا مِنْ بَنِي هَاشِمٍ.. وَمِنْهُمْ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ الَّذِي كَانَ يَسْقِي الْحَجِيجَ

---

١) راجع البداية والنهاية (٤/ ٢٩٠).

٢) رواه البخاري برقم (٢٤٤٣)، عن أنس رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ.

٣) وهذا شبيه باللجوء السياسي الآن إلى دولة أخرى.

وَيُطْعِمُهُمْ، وَوَرِثَهُ أَبُو طَالِبٍ فِي ذَلِكَ، وَقَدْ تَوَلَّى حِمَايَةَ ابْنِ أَخِيهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ وَسَائِرُ بَنِي هَاشِمٍ، مُسْلِمِهِمْ وَكَافِرِهِمْ، وَلَمْ يَنْشَقَّ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ إِلَّا أَبُو لَهَبٍ.

وَكَمْ حَاوَلَتْ قُرَيْشٌ التَّفَاوُضَ مَعَ أَبِي طَالِبٍ كَيْ يَرْفَعَ حِمَايَتَهُ عَنْ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.. لَكِنَّهُ كَانَ يَرْفُضُ، وَلَقَدْ كَانَ هَذَا مِمَّا هَيَّأَهُ اللهُ لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ أَمْرٌ فِي غَايَةِ الْأَهَمِّيَّةِ، يَضْمَنُ لِلدَّاعِي حُرِيَّةَ التَّعْبِيرِ وَالْبَيَانِ وَالتَّبْلِيغِ.. وَلَئِنْ كَانَتِ الْعَصَبِيَّةُ الْقَبَلِيَّةُ مَذْمُومَةً فِي جَوَانِبَ فَقَدْ أَدَّتْ دَوْرًا إِيجَابِيًّا فِي جَوَانِبَ أُخْرَى.

وَبَعْدُ.. فَهَذَا الرَّصِيدُ بِجَوَانِبِهِ الخَمْسِ كَانَ قَاعِدَةً صُلْبَةً وَقَفَ عَلَيْهَا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ صَامِدًا أَمَامَ تَكْذِيبِ الْمُشْرِكِينَ.

لَقَدْ اتَّهَمُوهُ بِعَكْسِ صِفَاتِهِ.. قَالُوا عَنْهُ: مَجْنُونٌ.. سَاحِرٌ كَذَّابٌ: (مُذَمَّمٌ) بَدَلا مِنِ اسْمِهِ مُحَمَّدٍ، ﴿ وَقَالُواْ لَوْلَا نُزِّلَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانُ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنَ ٱلْقَرْيَتَيْنِ عَظِيمٍ ﴿٣١﴾ ﴾ (الزخرف).. وَقَالُوا: إِنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ.. وَقَالُوا: سَفَّهَ أَحْلَامَنَا وَسَبَّ آبَاءَنَا.. وَقَالُوا وَقَالُوا.. لَكِنَّهُمْ فِي أَعْمَاقِهِمْ كَانُوا يَعْرِفُونَ أَنَّهَا تُهَمٌ لَا أَسَاسَ لَهَا مِنَ الصِّحَّةِ: ﴿ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَٰكِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ يَجْحَدُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنعام). فَهُمْ يَتَهَرَّبُونَ مِنْ مُنَاقَشَةِ الْأَفْكَارِ.. إِلَى إِلْقَاءِ التُّهَمِ بِلَا دَلِيلٍ.. هَذِهِ أُمُورٌ لَا بُدَّ مِنَ الِانْتِبَاهِ إِلَيْهَا.

إِنَّ تَارِيخَ الدَّاعِي يُمَثِّلُ رَأْسَ مَالٍ هَامًّا فِي نُمُوِّ دَعْوَتِهِ.. وَمِنَ الْمُؤْسِفِ أَنَّ النَّاسَ حَتَّى هَذَا الْوَقْتِ لَا تَفْصِلُ بَيْنَ الْفِكْرَةِ وَحَامِلِهَا.. وَلَمْ تَتَجَاوَزْ مَرْحَلَةَ الْأَشْخَاصِ كَيْ تَدْخُلَ إِلَى الْأَفْكَارِ بِشَكْلٍ مُجَرَّدٍ عَنْ أَيِّ تَأْثِيرٍ شَخْصِيٍّ.

وَعَلَى الدَّاعِي أَنْ يَحْرِصَ عَلَى نَقَاءِ صَفْحَتِهِ؛ لِأَنَّهُ مُحْتَاجٌ إِلَى رَصِيدٍ يَشْفَعُ لَهُ

وَيَدْعَمُ أَفْكَارَهُ، وَالنَّاسُ يَسْتَغِلُّونَ أَخْطَاءَهُ، وَيُهَوِّلُونَهَا بِشَكْلٍ عَجِيبٍ.

انْظُرْ إِلَى فِرْعَونَ كَيْفَ يَضَعُ الْحَوَاجِزَ فِي وَجْهِ مُوسَى فَيَقُولُ: ﴿ **أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾** ﴾ (الشعراء). يُذَكِّرُهُ بِقَتْلِ الْمِصْرِيِّ خَطَأً، وَيُرِيدُ أَنْ يَسْتَغِلَّهَا كَوَصْمَةٍ فِي تَارِيخِهِ.. لَكِنَّ مُوسَى يَعْتَرِفُ بِخَطَئِهِ فِي الْمَاضِي، وَبِأَنَّ اللهَ تَابَ عَلَيْهِ: ﴿ **قَالَ فَعَلْتُهَآ إِذًا وَأَنَا۠ مِنَ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٢٠﴾** ﴾ (الشعراء)، مَعَ أَنَّ الْحَادِثَةَ كَانَتْ قَتْلًا خَطَأً، وَكَانَ مُوسَى فِيهَا يُدَافِعُ عَنْ ضَعِيفٍ.

هَذَا الرَّصِيدُ ضَرُورِيٌّ لِكُلِّ مَنْ أَرَادَ أَنْ يَتَصَدَّرَ لِلدَّعْوَةِ.. وَلَا يَعْنِي هَذَا حِرْمَانَ مَنْ كَانَتْ لَهُ آثَامٌ وَضَلَالَاتٌ مِنْ أَنْ يَتَحَرَّرَ وَيَتَغَيَّرَ.. بَلْ قَدْ يَكُونُ تَعَلُّقُهُ بِالْهِدَايَةِ مُتَأَلِّقًا مُتَمَيِّزًا لِأَنَّهُ جَرَّبَ الضَّيَاعَ.. لَكِنَّهُ لَنْ يَقْدِرَ عَلَى الدَّعْوَةِ وَالتَّأْثِيرِ فِي النَّاسِ حَتَّى يُشَكِّلَ لِنَفْسِهِ رَصِيدًا فِي الْخَيْرِ، وَتَارِيخًا يَكْفِي لِيَكُونَ مَوْضِعَ ثِقَةِ النَّاسِ؛ لِأَنَّ عَامَّةَ النَّاسِ – كَمَا قُلْنَا – لَمْ تَعْلَمِ النَّظَرَ إِلَى الْأَفْكَارِ مُجَرَّدَةً.

وَفِي السِّيرَةِ مَوَاقِفُ عَدِيدَةٌ لِأُنَاسٍ بُسَطَاءَ أَسْلَمُوا لِثِقَتِهِمْ بِمُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، حَتَّى إِنَّ أَحَدَهُمْ كَانَ يَقُولُ: « عَرَفْتُ أَنَّ وَجْهَهُ لَيْسَ بِوَجْهِ كَذَّابٍ »(١).

وَهَكَذَا أُعِدَّ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ هُوَ (الْمُصْطَفَى) لِإِحْدَاثِ أَكْبَرِ تَغْيِيرٍ فِكْرِيٍّ دِينِيٍّ فِي هَذِهِ الْحَيَاةِ.

---

١) رواه أحمد برقم (٢٣٧٨٤)،وابن ماجه برقم (١٣٣٤)، والترمذي برقم (٢٤٨٥)، وقال: حديث صحيح ، من حديث عبد الله بن سلام رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ومن الأرض المباركة بزغ نور الوحي ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ (العلق).

وَنَزَلَ الْوَحْيُ ، وَكَانَ نُزُولِهِ عَلَى عِدَّةِ صُوَرٍ:

إِحْدَاهَا: الرُّؤْيَا الصَّادِقَةُ، وَكَانَتْ مَبْدَأَ وَحْيِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّانِيَةُ: مَا كَانَ يُلْقِيهِ الْمَلَكُ فِي رُوعِهِ وَقَلْبِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَرَاهُ.

الثَّالِثَةُ: كَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَتَمَثَّلُ لَهُ الْمَلَكُ رَجُلًا فَيُخَاطِبُهُ حَتَّى يَعِيَ عَنْهُ مَا يَقُولُ

الرَّابِعَةُ: أَنَّهُ كَانَ يَأْتِيهِ فِي مِثْلِ صَلْصَلَةِ الْجَرَسِ، وَكَانَ أَشَدَّهُ عَلَيْهِ، فَيَلْتَبِسُ بِهِ الْمَلَكُ، حَتَّى إِنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفَصَّدُ عَرَقًا فِي الْيَوْمِ الشَّدِيدِ الْبَرْدِ، وَحَتَّى إِنَّ رَاحِلَتَهُ لَتَبْرُكُ بِهِ إِلَى الْأَرْضِ إِذَا كَانَ عَلَيْهَا.

الْخَامِسَةُ: أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَرَى الْمَلَكَ فِي صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا، فَيُوحِي إِلَيْهِ مَا شَاءَ اللهُ أَنْ يُوحِيَهُ.

السَّادِسَةُ: مَا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، وَهُوَ فَوْقَ السَّمَوَاتِ لَيْلَةَ الْمِعْرَاجِ مِنْ فَرْضِ الصَّلَاةِ وَغَيْرِهَا.

السَّابِعَةُ: كَلَامُ اللهِ لَهُ بِلَا وَاسِطَةِ مَلَكٍ، كَمَا كَلَّمَ اللهُ مُوسَى بْنَ عِمْرَانَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَهَذِهِ الْمَرْتَبَةُ هِيَ ثَابِتَةٌ لِمُوسَى قَطْعًا بِنَصِّ الْقُرْآنِ، وَثُبُوتُهَا لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ فِي حَدِيثِ الْإِسْرَاءِ (١).

***

١) زاد المعاد، ابن القيم، (١/ ٧٧-٧٨)، بتصرف.

الفصل الثاني

أُسُسُ الْبِنَاءِ فِي دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

أَوَّلا: تَوْحِيدُ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ:

وَهُوَ حَقُّ اللهِ عَلَى العَبِيدِ، وَهُوَ أَوَّلُ وَاجِبٍ يَجِبُ عَلَى الْمُكَلَّفِ كَي يَكونَ مُسْلِمًا:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيْهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنبياء).

فَأَسَاسُ دَعْوَةِ الرُّسُلِ كُلِّهِمْ دَعْوَةُ النَّاسِ إِلَى عَقِيدَةِ التَّوْحِيدِ وَبِمِثْلِ هَذَا جَاءَتْ دَعْوَتُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { أُمِرْتُ أَنْ أُقَاتِلَ النَّاسَ حَتَّى يَشْهَدُوا أَنْ لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الله، وَيُقِيمُوا الصَّلاَةَ، وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ .. }(١).

ثَانِياً: سُمُوُّ الإِنْسَانِ وَعُلُوُّ قَدْرِهِ:

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴿٧٠﴾﴾ (الإسراء).

وَلَيْسَ أَبْلَغَ فِي الدِّلَالَةِ عَلَى سُمُوِّ الْإِنْسَانِ، مِنْ قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّ اللهَ عَزَّ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٢٥)، ومسلم برقم (٢٢).

وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ: يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّهُ اسْتَطْعَمَكَ عَبْدِي فُلَانٌ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا عَلِمْتَ أَنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ وَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي }(١).

فهَلْ فَازَ الْإِنْسَانُ بِهَذِهِ الْمَكَانَةِ السَّامِقَةِ، والشَّرَفِ الْعَالِي فِي أَيَّةِ دِيَانَةٍ أَوْ فَلْسَفَةٍ فِي الْعَالَمِ الْقَدِيمِ أَوِ الْحَدِيثِ؟!

ثالِثاً: الْجَمْعُ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا:

لَقَدْ مَلَأَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْفَجْوَةَ الْوَاسِعَةَ بَيْنَ الدِّينِ وَالدُّنْيَا، وَجَعَلَ هَذَيْنِ الْمُتَبَاعِدَيْنِ يَتَعَانَقَانِ فِي أُلْفَةٍ وَوُدٍّ، وَلْنَتَدَبَّرْ قَوْلَ رَبِّنَا الْجَامِعَ: ﴿ رَبَّنَآ ءَاتِنَا فِى ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْـَٔاخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿٢٠١﴾ ﴾ (البقرة).

وَقَوْلَهُ سُبْحَانَهُ: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ ﴾ (الأنعام)، إِعْلَانٌ بِأَنَّ حَيَاةَ الْمُؤْمِنِ لَيْسَتْ مَجْمُوعَ وِحْدَاتٍ مُتَفَرِّقَةٍ مُتَضَادَّةٍ، بَلْ هِيَ وِحْدَةٌ تُسَيْطِرُ عَلَيْهَا رُوحُ الْعِبَادَةِ وَالِاحْتِسَابِ، وَيَقُودُهَا الْإِيمَانُ بِاللهِ نَحْوَ اتِّبَاعِ

---

١) رواه مسلم برقم (٢٥٦٩).

شَرْعِهِ، وَتَنْفِيذِ أَمْرِهِ وَتَحْقِيقِ مَحَابِّهِ.

رَابِعاً: سُمُوُّ الأَهْدَافِ وَنُبْلُ الْوَسَائِلِ:

كَانَ الْإِنْسَانُ قَبْلَ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ جَاهِلًا لِهَدَفِهِ الْحَقِيقِيِّ، لَا يَدْرِي إِلَى أَيْنَ يَتَّجِهُ؟! وَإِلَى أَيْنَ الْمَصِيرُ؟ وَمَا هُوَ الْمَجَالُ الْأَفْضَلُ وَالْحَقِيقِيُّ لِمَوَاهِبِهِ وَطَاقَاتِهِ، لَكِنَّهُ انْتَقَلَ بِدَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مِنْ مَرْحَلَةٍ كُلُّهَا جَدْبٌ وَقَلَقٌ وَخَوْفٌ إِلَى حَيَاةٍ كُلُّهَا خَيْرٌ وَهُدُوءٌ وَأَمْنٌ.

لَقَدْ تَغَيَّرَتْ طِبَاعُ النَّاسِ،وَانْتَعَشَتِ الْقُلُوبُ الْخَاوِيَةُ الْبَارِدَةُ بِحَرَارَةِ الْإِيمَانِ، وَاسْتَضَاءَتِ الْعُقُولُ بِنُورِ الْوَحْيِ، وَسَعِدَتِ النُّفُوسُ بِقِيَمِ السَّمَاءِ.

إِنَّ هَذَا التَّحَوُّلَ الْعَظِيمَ مُعْجِزَةٌ مِنْ مُعْجِزَاتِ مُحَمَّدٍ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ، وَنَفْحَةٌ مِنْ نَفَحَاتِ الرَّحْمَةِ الْإِلَهِيَّةِ الَّتِي عَمَّتِ الْأَمْكِنَةَ كُلَّهَا، وَالْأَزْمِنَةَ كُلَّهَا.

- فَسَلُوا عَنْ هَذَا التَّحَوُّلِ أَهْلَ الْفَضْلِ وَالْخَيْرِ:

سَلُوا عَنْهُ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ، وَمُصْعَبَ بْنَ عُمَيْرٍ، وَبِلَالَ بْنَ رَبَاحٍ، فَهَؤُلَاءِ مِنَ الْقِمَمُ الَّتِي سَمَتْ بِهَذَا الدِّينِ، وَصَارَتْ نَمَاذِجَ مُشْرِقَةً فِي دُنْيَا الْخَيْرِ وَالْفَضِيلَةِ.

***

الفَصْلُ الثَّالِثُ / مَلامِحُ عُلُوِّ قدْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١- اعْرِفِ الْمُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١ـ اسمه

هو مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللّه بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ قُصَيِّ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ.

*وَأُمُّهُ آمِنَةُ بِنْتُ وَهْبِ بْنِ عَبْدِ مَنَافِ بْنِ زُهْرَةَ بْنِ كِلابِ بْنِ مُرَّةَ.

ومِن أسمائه: مُحَمَّدٌ وَأَحْمَدُ وَالْمَاحِي (يَمْحُو اللّهُ بِهِ الْكُفْرَ)، وَالْحَاشِرُ (يَقْدُمُ النَّاسَ بِالْحَشْرِ)، وَالْعَاقِبُ (آخِرُ الأَنْبِيَاءِ)، وَنَبِيُّ التَّوْبَةِ، وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ، وَالْمُقَفِّي، (بِمَعْنَى الْعَاقِبِ)، وَالْمُبَشِّرُ، وَالنَّذِيرُ، وَالضَّحُوكُ. وَلَهَا تَفْصِيلٌ سيأتي إن شَاءَ اللّهُ.

٢ـ حمله ومولده

كَانَتْ آمِنَةُ تَقُولُ: مَا شَعُرْتُ أَنِّي حَمَلْتُ وَلا وَجَدْتُ لَهُ ثِقلاً، كَمَا تَجِدُ النِّسَاءُ، إلا أَنِّي قَدْ أَنْكَرْتُ رَفْعَ حَيْضَتِي مِنْ عَلامَاتِ الْحَمْلِ.

* وُلِدَ رَسُولُ اللّهِ على الأَرْجَحِ يَوْمَ الاثْنَيْنِ التَّاسِعَ من رَبِيعٍ الأَوَّلِ عَامَ الْفِيلِ الْمُوَافِقَ ٢٠ أَبْرِيلَ سَنَةَ ٥٧١م.

٣- مرضعاته

أَوَّلُ مَنْ أَرْضَعَتْهُ ثُوَيْبَةُ مَوْلاةُ أَبِي لَهَبٍ، ثُمَّ أَخَذَتْهُ حَلِيمَةُ السَّعْدِيَّةُ لإِرْضَاعِهِ، وَرَأَتْ بِقُدُومِهِ الْخَيْرَ وَالْبَرَكَةَ فِي بَيْتِهَا.

٤- وفاة والده

خَرَجَ وَالِدُهُ عَبْدُ اللّهِ إِلَى الشَّامِ فِي تِجَارَةٍ مَعَ جَمَاعَةٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَلَمَّا رَجَعُوا مَرُّوا بِالْمَدِينَةِ، وَعَبْدُ اللّهِ مَرِيضٌ فَأَقَامَ عِنْدَ أَخْوَالِهِ شَهْراً، ثُمَّ تُوُفِّيَ بِالْمَدِينَةِ وَعُمْرُهُ ٢٥سَنَةً، وَكَانَ مِيرَاثُهُ قِطْعَةَ غَنَمٍ وَخَمْسَةَ أَجْمَالٍ، فَوَرِثَ رَسُولُ اللّهِ ذَلِكَ، وَكَانَتْ أُمُّ أَيْمَنَ تَحْتَضِنُهُ، وَاسْمُهَا بَرَكَةُ.

٥- وفاة والدته

ذَهَبَتْ أُمُّهُ بِهِ إِلَى الْمَدِينَةِ لِتَزُورَ أَخْوَالَهُ مِنْ بَنِي النَّجَّارِ وَمَعَهَا أُمُّ أَيْمَنَ حَاضِنَتُهُ، فَأَقَامَتْ عِنْدَهُمْ شَهْراً، ثُمَّ رَجَعَتْ فَتُوُفِّيَتْ بِالأَبْوَاءِ، وَكَانَ عُمُرُهُ إِذْ ذَاكَ سِتَّ سَنَوَاتٍ.

٢- (تَعَرَّفْ عَلَى حَبِيبِكَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ)

(١) صِفَاتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

كَانَ رَسولُ اللهِ رَبْعَةً لَيْسَ بالطَّويلِ وَلا الْقَصيرِ، وَلَيْسَ بالآدَمِ (الأَسْمَرِ) وَلا شَديدِ الْبَيَاضِ. رَجِلَ الشَّعْرِ لَيْسَ بالسَّبْطِ وَلا الْجَعْدِ، يَضْرِبُ شَعْرُهُ مَنْكِبَيْهِ. قَالَ أَنَسٌ "مَا مَسَسْتُ حَريراً أَلْيَنَ مِنْ كَفِّ رَسُولِ اللهِ" عَظيمَ الفَمِ، طَويلَ شَقِّ العَينِ، مُدَوَّرَ الوَجْهِ، أَبيضَ يَميلُ إِلى الاحمِرارِ، شَديدَ سَوادِ العَينَينِ، غَليظَ الأَصابِعِ، واسِعَ الجَبينِ، خَشْنَ اللِّحْيَةِ، سَهْلَ الخَدَّيْنِ، عَريضَ الصَّدرِ، أَشْعَرَ الذِّراعَيْنِ، طَويلَ الزَّندَينِ.

(٢) أَولادُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

أولُ مَن وُلِدَ لَهُ القاسِمُ، وبِهِ كَانَ يُكنَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ثمَّ زينبُ، ثم رُقيَّةُ، ثمَّ أمُّ كُلْثومَ ثمَّ فاطِمةُ، ثمَّ وُلِدَ لَهُ عَبْدُ اللهِ في الإسْلامِ، وأُمُّهُمْ جَميعًا خَديجَةُ. وأولُ مَنْ مَاتَ مِنْ وَلَدِهِ القاسِمُ ثمَّ عبدُ اللهِ، كَمَا رُزِقَ بإبراهيمَ مِنْ مَارِيَةَ القِبْطِيَّةِ، إلا أَنَّهُ تُوفِّيَ وعُمْرُهُ سِتَّةَ عَشَرَ شَهْرًا، أَوْ أَكثرُ مِنْ ذَلِكَ (رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ)

(٣) مُعْجِزاتُه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

١- القرآنُ الكريمُ
٢- الإسراءُ والمعراجُ.
٣- حَنِينُ جِذْعِ النَّخْلَةِ.
٤- تَفْجيرُ الماءِ مِن بَيْنِ أصابعِهِ الشَّريفَةِ.
٥- الإخْبارُ بالأمورِ الغَيْبِيَّةِ الماضِيَةِ والمستقبلةِ.
٦- تَسْليمُ الحَجَرِ والشَّجَرِ عَلَيْهِ.
٧- انْشِقاقُ القَمَرِ.
٨- تَكْثيرُ الطَّعامِ والشَّرابِ ببَرَكَتِه.
٩- عِلاجُهُ لأمراضِ الصَّحابةِ بدُعائِهِ لهُمْ ومَسْحِهِ بيَدِهِ الشَّريفَةِ عَلَيْهِمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ.
١٠- الاسْتِجابَةُ لِدُعائِهِ.
١١- قِتالُ الملائكةِ مَعَهُ.

٣- تعرف على أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهن - المجموعة (أ)

١- خديجة بنت خويلد
كانت متزوجة من اثنين قبله ﷺ وهي أول من أسلم، ولقد سلم الله عليها عن طريق جبريل، ولم يتزوج النبي عليها حتى ماتت، ومكث معها ٢٤ سنة وأشهراً، وكان وفيًا لها بعد موتها ببر صديقاتها ويكثر من الدعاء لها والاستغفار.
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٢- عائشة بنت الصديق
رأها النبي في المنام قبل أن يتزوجها مرتين، وتزوجها وهي بنت سبع سنين وزفت إليه وهي بنت تسع سنين وتوفى عنها وهي بنت ثماني عشرة سنة وتزوجها في سنة ١١ للنبوة، وكان يلعب معها ويقبلها وهو صائم، ويدعو لها، وقال إنها فضلت على نساء النبي بعشر، أنه لم ينكح بكراً غيرها ولم ينكح امرأة أبواها مؤمنان مهاجران غيرها. وأنزل الله براءتها من السماء، وجاء جبريل بصورتها في حريرة، وكانت تغتسل مع النبي في إناء واحد، وكان ينزل عليه الوحي وهو معها، وقبض وهو بين سحرها ونحرها. رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٣- حفصة بنت عمر بن الخطاب
وقد عرضها والدها على أبي بكر حتى يتزوجها فلم يجبه وكذلك على عثمان فلم يجبه فلبث ليالي، ثم خطبها النبي ﷺ فقال أبو بكر لعمر فإنه لم يمنعني من خطبتها إلا أني سمعت رسول الله ﷺ يذكرها ولم أكن لأفشي سر رسول الله ثم طلقها بعد ذلك ولكنه راجعها لأمر جبريل له بذلك، وقد توفيت سنة ٤١هـ وقد بلغت ٦٠ سنة.
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٤- زينب بنت جحش
تزوجها النبي وعمرها ٣٥ سنة ٥هجرية وكان قد استخار بها ربه فقال تعالى: "وتخفي نفسك ما الله مبديه" فكانت زينب تفخر على أزواج النبي وتقول زوجكن أهلوكن وزوجني الله تعالى وكانت تقية وصادقة الحديث من صلة الرحم وتكثر من الصدقة، وتوفيت سنة ٢٠هـ وصلى عليها عمر بن الخطاب
رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا.

٣- تعرَّف على أزواجه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ورضي الله عنهن - المجموعة (ب)

٥- أم سلمة هند بنت أبي أمية كانت أول مهاجرة من النساء؛ وقد أصيبت بوفاة زوجها "أبو سلمة"، فتزوجها النبي، وكان النبي إذا صلى العصر دخل على نسائه فيبدأ بأم سلمة لأنها أكبرهن وتوفيت رضي الله عنها عمرها ٨٤ سنة، وكانت آخر من مات من زوجات النبي.

٦- أم حبيبة رملة بنت أبي سفيان هاجرت إلى الحبشة مع زوجها فتنصر زوجها ومات، فتزوجها النبي ﷺ وهي بأرض الحبشة سنة ٦ هـ وأصدقها النجاشي ٤٠٠ دينار عن رسول الله ﷺ وأرسلها النجاشي مع شرحبيل (٩) هـ، وتوفيت ٤٤هـ

٧- زينب بنت خزيمة وتسمى أم المساكن لأنها كثيراً ما تطعم المساكين؛ وتوفيت وتزوجها سنة ٤ هـ ورسول الله ﷺ حي وقد مكثت عند رسول الله ثمانية أشهر.

٨- ميمونة بنت الحارث وهبت نفسها للنبي. قال تعالى: (وَامْرَأَةً مُؤْمِنَةً إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ) وتزوجها حين اعتمر بمكة (٧) هـ، وتوفيت (٦١) هـ.

٩- جويرية بنت الحارث تزوجها النبي بعد ما أعتقها حيث كانت من سبايا بني المصطلق. ولقد أعتق بسببها مائة أهل بيت من بني المصطلق فكانت أعظم بركة على قومها وتزوجها ٦ هـ.

١٠- سودة بنت زمعة:
تزوجها النبي في السنة العاشرة من النبوة وكانت ممن أسلم قديماً وهاجرت الهجرة الثانية إلى الحبشة، وكان زوجها السكران بن عمرو. وكان قد أسلم وهاجر معها، فمات بأرض الحبشة، أو بعد الرجوع إلى مكة، فلما حلت خطبها رسول الله ﷺ وتزوجها، وكانت أول امرأة تزوجها بعد وفاة خديجة، وكانت قد وهبت نوبتها لعائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

١١- صفية بنت حيي بن أخطب وكان أبوها سيد بني النضير وجعل رسول الله عتقها صداقها، وقد دخل عليها رسول الله وهي تبكي فقالت له إن حفصة وعائشة ينالان مني، وتقولان نحن خير منك نحن بنات عم رسول الله، فقال لها النبي ألا قلت كيف تكن خيراً مني وأبي هارون، وعمي موسى وزوجي محمد، وتوفيت سنة ٥٠هـ.

٤) مظاهر إكرام الله النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الدنيا

أخذ العهد له.

قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾﴾ (آل عمران)

إنه منّة على المؤمنين.

قال تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٦٤)

هو رحمة للعالمين.

قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠٧﴾﴾ (الأنبياء)

كان نبيًا عندما كان آدم في طينته.

قال رسول الله: { إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته }.

هو أولى بالأنبياء من أممهم.

قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ آل عمران٦٨.

قصة صيام يوم عاشوراء: حينما دخل النبي المدينة ووجد أهلها صائمون فسأل عن السبب فقالوا: إن هذا يوم نجا الله فيه موسى من فرعون؛ فصامه وأمر بصومه، وقال: { نحن أولى به منهم }.

أزواجه أمهات المؤمنين:

قال تعالى: ﴿ٱلنَّبِىُّ أَوْلَىٰ بِٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَأَزْوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمْ﴾ (الأحزاب:٦)

هو خير الخلق أجمعين.

قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشًا من كنانة، واصطفى من قريش بني هاشم، واصطفاني من بني هاشم فأنا خيار من خيار }، وقال { أنا سيد ولد آدم ولا فخر }.

٥- مَظَاهِرُ إِكْرَامِ اللهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا

أمان لأمته: قال تعالى: (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ)[الأنفال: ٣٣]. وقال ﷺ { النجوم أمنة السماء، فإذا ذهبت النجوم أتى السماء ما توعد وأنا أمنة لأصحابي }.

النهي عن مناداته باسمه، ورفع الصوت فوق صوته : قال تعالى: (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا) [النور] قال تعالى: (لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ) [الحجرات: ٢]

فرض بعض شرعه في السماء: عن ابن مسعود رضي الله عنه قال « أُعطي رسول الله ثلاثا (يعني ليلة الإسراء) أعطي الصلوات الخمس، وأعطي خواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لم يشرك بالله من أمته شيئًا المقحمات » (الذنوب المهلكات).

استمرار الصلاة عليه : قال تعالى: (إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا) [الأحزاب: ٥٦]. والفعل (يصلون) يقتضي التجديد والاستمرار.

تكفل الله بحفظه: قال تعالى: (وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ)[المائدة:٦٧] وقال: (إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ) [الحجر: ٩٥]

القسم بحياته : قال تعالى: (لَعَمْرُكَ إِنَّهُمْ لَفِي سَكْرَتِهِمْ يَعْمَهُونَ (٧٢)). [الحجر] .
القسم ببلده : قال تعالى: (لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ (١) وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ(٢)) [البلد] .
القسم له : قال تعالى: (وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى (١) مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى(٢)) [النجم] .

التكفل بحفظ دينه: (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ) [الحجر]

لم يناده باسمه: قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ) [المائدة: ٦٧] ، وقال تعالى: (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ) [الأنفال]

عموم رسالته: (وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا) [سبأ:٢٨].

٦- مَظَاهِرُ إِكْرَامِ اللّهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا

الإسراء والمعراج

ونال فيهما شرف تكليم الله تعالى له، ورؤية الجنة والنار، وسماع صريف الأقلام وإمامته بالأنبياء بالبيت المقدس قال رسول الله [وقد رأيتني في جماعة من الأنبياء فكانت الصلاة فأممتهم].

غُفِر له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر

قال الله تعالى: (إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا).. إلى أن قال... (لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ).

إسلامُ قرينه له

قال رسول الله: { ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن. قالوا: وإياك يا رسول الله ؟ قال: [وإياي، إلا أن الله أعانني عليه فأسلم فلم يأمرني إلا بخير] }.

خاتم النبوة

عن جابر قال: "رأيت خاتمًا في ظهر رسول الله كزئة بيضة حمام" وهو خاتم النبوة بين كتفيه.

اطلاعه على بعض المغيبات

قال عمر [قام فينا النبيُّ مقامًا فأخبرنا عن بدء الخلق حتى دخل أهل الجنة منازلهم وأهل النار منازلهم وحفظ ذلك من حفظه ونسيه من نسيه].

رؤيته في المنام حق

قال رسول الله { من رآني في المنام فقد رآني حقا فإن الشيطان لا يتمثل بي }.

قرنه خير القرون

قال رسول الله ﷺ { بعثت من خير قرون بني آدم قرنًا فقرنًا }.

يرى من وراء ظهره

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ { فوالله ما يخفى علىَّ خشوعكم ولا ركوعكم إني لأراكم من وراء ظهري }.

تأخير دعوته المستجابة

قال رسول الله ﷺ: { وإني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة }.

في مسجده روضة من رياض الجنة

قال رسول الله: {ما بين بيتي ومنبري روضة من رياض الجنة }.

٧) حقوق وواجبات للنبيِّ ﷺ

وقال الإمام مالك رحمه الله: « إني أحب أن أُعَظِّم حديث رسول الله ﷺ ولا أحدث به إلا على طهارة، وأكره أن أحدث في الطريق أو أنا قائم أو مستعجل وأحب أن أفهم حديث رسول الله ﷺ »

وكان إذا ذكِرَ النبيُّ ﷺ يتغيَّر لونه، فقيل له يوماً في ذلك، فقال: « لقد كنت أرى جعفر بن محمد رحمه الله وكان كثير الدعابة والتبسم فإذا ذكر النبي ﷺ عنده اصفرَّ، وما رأيته يحدِّث عن رسول الله ﷺ إلا على طهارة ».

قال الإمام النجيبي رحمه الله: «واجب على كل مؤمن متى ذكره أو ذكر عنده أن يخضع ويتوقر ويسكن من حركته ويأخذ في هيبته واجلاله بما كان يأخذ به نفسه لو كان بين يديه، ويتأدب بما أدبنا الله»

وكان الإمام ابن مهدي إذا قرأ حديث النبي ﷺ أمرهم بالسكوت وقال «لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي »، ويتأول أنه يجب له من الإنصات عند قراءة حديثه ما يجب له عند سماع قوله.

* من علامات الأدب والمحبة له : ١) الاقتداء به، واتباع سنته، والعمل بأقواله وأفعاله ﷺ في المنشط والمكره. ٢) كثرة ذكره والشوق للقائه ﷺ - ٣) تعظيمه عند ذكره وتوقيره عند سماع اسمه ﷺ - ٤) محبة القرآن الذي أتى به ﷺ والاهتداء والتخلق به - ٥) كثرة الصلاة والسلام عليه ﷺ ومعلوم أن صلاة الله عليه معناها ثناؤه ورضوانه، وصلاة الملائكة والأمة: طلب ذلك من الله سبحانه، أي طلب الزيادة لا طلب أصل الصلاة. ٦) محبة مَنْ يحب مِنْ آل بيته وأصحابه ﷺ، وعداوة من عاداهم - ٧) الشفقة على أمته ﷺ، ونصحهم، والسعي في مصالحهم، ورفع المضار عنهم.

٨- فَضَائِلُ عَظِيمَةٌ : ومن جملة ما فضَّله الله تعالى :

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ الله الْأَنْصَارِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أُعْطِيتُ خَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ قَبْلِي: كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ وَلَمْ تُحَلَّ لِأَحَدٍ قَبْلِي، وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ بَيْنَ يَدَيْ مَسِيرَةِ شَهْرٍ، وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ }(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ طَهُورًا وَمَسْجِدًا، وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافة، وَخُتِمَ بِي النَّبِيُّونَ }(٢).

وعَنْهُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضاً قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ}.
قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « فَذَهَبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا »(٣).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَتْ لَنَا الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا،

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣٣٥)، ومسلم برقم (٥٢١).
٢) رواه مسلم برقم (٥٢٣).
٣) متفق عليه: رواه البخاري برقم(٢٩٧٧)، ومسلم برقم (٥٢٣)، واللفظ له، و(تنتثلونها) : أي تستخرجونها من مواضعها.

وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ }(١).

وَفِي أُخْرَى: { وَأُعْطِيتُ هَذِهِ الْآيَاتِ مِنْ آخِرِ الْبَقَرَةِ مِنْ كَنْزٍ تَحْتَ الْعَرْشِ، لَمْ يُعْطَهَا نَبِيٌّ قَبْلِي }(٢).

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :{ أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ } فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، مَا هُوَ قَالَ؟: { نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِّيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُورًا، وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ }(٣).

وَعَنْ أَبِي سَعِيدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ }(٤).

* كَيْفِيَّةُ الْجَمْعِ بَيْنَ هَذِهِ الأَحَادِيثِ :

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: « فَيَنْتَظِمُ بِهَذَا سَبْعَ عَشْرَةَ خَصْلَةً وَيُمْكِنُ أَنْ يُوجَدَ أَكْثَرُ مِنْ ذَلِكَ لِمَنْ أَمْعَنَ التَّتَبُّعَ »(٥).

---

١) رواه مسلم برقم (٥٢٢).
٢) رواه أحمد برقم (٢٣٢٥١)، وابن حبان في صحيحه برقم (١٦٩٧)، وغيرهما، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (٤٢٢٣).
٣) رواه أحمد برقم (٧٦٣)، وابن أبي شيبة في مصنفه برقم (٣١٦٤٧)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٩٣٩).
٤) رواه أحمد برقم (٢٥٦٤)، والترمذي برقم (٣١٤٨)، وقال: حديث حسن.
٥) فتح الباري للحافظ ابن حجر العسقلاني (١/ ٤٣٩).

وَقَالَ أَبُو سَعِيدٍ النَّيْسَابُورِيُّ: « إِنَّ الْخَصَائِصَ الَّتِي فَضَّلَ اللهُ بِهَا النَّبِيَّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ سِتُّونَ خَصْلَةً »[١]، بَلْ قَالَ السُّيُوطِيُّ: « إِنَّ مَا خُصَّ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ عَن سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ، وما خص به عن الأمة يَزِيدُ عَنْ أَلْفِ خَصِيصَةٍ »[٢].

وَقَدْ يُظَنُّ أَنَّ بَيْنَ هَذِهِ الرِّوَايَاتِ تَعَارُضاً؛ فَقَدْ قَالَ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **{ أُعْطِيتُ خَمْسًا }، وَ{ فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِستٍّ }، وَ{ فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ }، و{ أُعْطِيتُ أَرْبَعًا }، وَ{ فُضِّلْتُ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ بِخَصْلَتَيْنِ }.**

وَأَقُولُ: يَجِبُ أَنْ نَعْرِفَ أَنَّ قَوْلَهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: **{أُعْطِيتُ خَمْسًا... إلخ}** لَا يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ، وعَلَى أَنَّهُ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ لَمْ يُخْتَصَّ بِغَيْرِ الْخَمْسِ الْمَذْكُورَةِ، وَكَذَلِكَ غَيْرُهَا، فَالْعَدَدُ هُنَا غَيْرُ مُرَادٍ.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: « وَطَرِيقُ الْجَمْعِ أَنْ يُقَالَ: لَعَلَّهُ اطَّلَعَ أَوَّلًا عَلَى بَعْضِ مَا اخْتَصَّ بِهِ ثُمَّ اطَّلَعَ عَلَى الْبَاقِي »[٣].

وَقَالَ الْقُرْطُبِيُّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « لَا يظَنُّ القَاصِرُ أَنْ هَذَا تَعَارُضٌ، وَإِنَّمَا يَظُنُّ مَنْ تَوَهُّمِ أَنَّ ذِكْرَ الْأَعْدَادِ يَدُلُّ عَلَى الْحَصْرِ، وَأَنَّ لَهَا دَلِيلُ خطَابٍ، وكل ذلك باطل، ؛ فَإِنَّ القائل: عِنْدِي خَمْسَةُ دَنَانِيرَ. مَثَلًا لَا يَدُلُّ هَذَا اللَّفْظُ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ عِنْدَهُ غَيْرُهَا،

---

١) الخصائص الكبرى للإمام السيوطي (٢/ ٣١٤).
٢) انظر حاشية السيوطي على سنن النسائي (١/ ٢١٠).
٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري، لابن حجر (١/ ٤٣٦).

وَيَجُوزُ لَهُ أَنْ يَقُولَ تارَةً أُخْرَى: عِنْدِي عِشْرُونَ. وَتارَةً أُخْرَى: عِنْدِي ثَلَاثُونَ. فَإِنَّ مَنْ عِنْدَهُ ثَلَاثُونَ صَدَقَ عَلَيْهِ أَنَّ عِنْدَهُ عِشْرِينَ وَعَشَرَةً فَلَا تَنَاقُضَ وَلَا تَعَارُضَ ، وَيَجُوز أَنْ يَكُونَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أُعْلِمَ بِالثَّلَاثِ، وفي وقتٍ بالخَمْسِ، وفي وَقْتٍ بالسِّتِّ »[1].

وَقَالَ بَدْرُ الدِّينِ الْعِينِي: « حَاصِلُ هَذَا أَنَّ التَّنْصِيصَ عَلَى الشَّيْءِ بِعَدَدٍ لَا يَدُلُّ عَلَى نَفْيِ مَا عَدَاهُ »[2] وَقِيلَ: يُحْتَمَلُ أَنْ يُفَضَّلَ نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْخَمْسِ الْمَذْكُورَةِ أَوَّلاً ، ثُمَّ زَادَهُ اللهُ تَكْرِيمًا لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ».

وَمُجْمَلُ مَا سَبَقَ أَنَّ خُصُوصِيَّاتِهِ وَفَضَائِلَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَا تَنْحَصِرُ فِيمَا وَرَدَ ذِكْرُهُ؛ لِأَنَّهَا عَطَاءٌ مِنَ اللهِ الَّذِي لَا تُحْصَى نِعَمُهُ، وَلَا تَنْحَصِرُ كَمَالَاتُهُ وَنُعُوتُهُ، وَقَدْ أَشَارَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَىْ بَعْضِهَا تَعْرِيفًا لِأُمَّتِهِ بِفَضْلِهِ، وَتَنْبِيهًا إِلَى كَرَامَتِهِ عِنْدَ رَبِّهِ، وَلَمْ يَقْصِدْ حَصْرَ كُلِّ مَا فُضِّلَ بِهِ، فَلَا تَنَاقُضَ بَيْنَ الرِّوَايَاتِ، فَقَدْ يَكُونُ تَفَاوُتُهَا؛ لِأَنَّهُ ذَكَرَ بَعْضَهَا فِي بَعْضِ الْأَحْوَالِ لِدَاعٍ، أَوْ ذَكَرَ مَا أُخْبِرَ بِهِ، ثُمَّ أَضَافَ إِلَيْهِ مَا كَمُلَهُ بَعْدَ ذَلِكَ.

***

١) المفهم لما أشكل من تلخيص صحيح مسلم، لأبي العباس القرطبي (٥/ ٤٤).
٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للبدر العيني (٤/ ٨).

٩- مَظَاهِرُ إِكْرَامِ اللهِ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الآخِرَةِ (١)

* مِنْ دَلائِلِ عُلُوِّ قَدْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

١- أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ :

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ فَأُكْسَى الْحُلَّةَ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي }(٢).

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُروجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أُبْلِسُوا، لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ }(٣).

هَذَا الْفَضْلُ وَاقِعٌ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ دُونَ مُنَازِعٍ، وَهَذِهِ السِّيَادَةُ لَهَا أُسُسٌ تَرْتَكِزُ عَلَيْهَا وَأَدِلَّةٌ تَقُومُ بِهَا؛ لِذَا فَقَدْ سَلَّمَ الْمُرْسَلُونَ وَالْمَلَائِكَةُ صَلَوَاتُ اللهِ وَتَسْلِيمَاتُهُ عَلَيْهِمْ لِلنَّبِي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْفَضْلِ عَلَى الْعَالَمِينَ.

فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَأَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ }. أَيْ: تَنْفَطِرُ وَتَنْفَلِقُ.

---

١) مستفاد بتصرف من السُّنَنِ الزّكِيَّة للدكتور سعد جاويش - طبعة القاهرة.

٢) رواه الترمذي، برقم (٣٦١١)، وقال: حديث حسن غريب.

٣) رواه الترمذي، برقم (٣٦١٠)، وقال: حديث حسن غريب.

قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ ﴾ (ق). فَالْأَرْضُ تَنشَقُّ فَيَخْرُجُ مِنْهَا الْخَلَائِقُ سِرَاعًا، وَذَلِكَ عِنْدَ النَّفْخَةِ الثَّانِيَةِ الَّتِي يَقُومُ فِيهَا النَّاسُ مِنْ قُبُورِهِمْ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ سُبْحَانَهُ، وَيَكُونُ أَوَّلُهُمْ قِيَامًا وَخُرُوجًا مِنَ الْقَبْرِ هُوَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

أَمَا بَاقِي الْخَلَائِقِ فَإِنَّهُمْ يُبْعَثُونَ حُفَاةً عُرَاةً، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا }**(١).

وَبَعْدَ قِيَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَإِسْبَاغِ حُلَلِ السَّعَادَةِ وَالرِّضْوَانِ عَلَيْهِ يَقُومُ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ ثُمَّ أَبُو بَكْرٍ ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ آتِي أَهْلَ الْبَقِيعِ فَيَحْضُرُونَ مَعِي، ثُمَّ أَنْتَظِرُ أَهْلَ مَكَّةَ حَتَّى أَحْشُرَ بَيْنَ الْحَرَمَيْنِ }**(٢).

قَالَ الحكيم الترمذيُّ: « حَشْرُ الْمُصْطَفَى غَيْرُ حَشْرِ الشَّيْخَيْنِ؛ لِأَنَّ حَشْرَهُ حَشْرُ سَادَةِ الرُّسُلِ، بَلْ هُوَ إِمَامُهُمْ وَمَقَامُهُمْ فِي الْعَرْصَةِ فِي مَقَامِ الصِّدِّيقِينَ وَفِي صَفِّهِمْ، فَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ هُوَ اقْتِرَابُ بَعْضِهِمْ مِنْ بَعْضٍ فِي مَحَلِّ الْقُرْبَةِ.. »(٣).

*** شُبْهَةٌ وَجَوَابُهَا :**

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: اسْتَبَّ رَجُلَانِ: رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ وَرَجُلٌ مِنَ

---

١) رواه البخاري ، برقم (٣٣٤٩)، ومسلم برقم (٢٨٦٠).
٢) رواه الترمذي ، برقم (٣٦٩٢)، وقال: حديث حسن غريب.
٣) تحفة الأحوذي شرح سنن الترمذي لأبي العلاء محمد المباركفوري (١٠/ ١٢٤).

الْمُسْلِمِينَ، فَقَالَ الْمُسْلِمُ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى الْعَالَمِينَ. وَقَالَ الْيَهُودِيُّ: وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الْعَالَمِينَ. قَالَ: فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ، فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ العَرْشِ، فَلاَ أَدْرِي أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ، فَأَفَاقَ قَبْلِي أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللهُ }**(١).

فَفِي الْحَدِيثِ: بيان أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا أَفَاقَ وَجَدَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ بَاطِشًا تَحْتَ الْعَرْشِ. وَفِي رِوَايَةٍ: **{ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ بُعِثَ فَإِذَا مُوسَى آخِذٌ بِالْعَرْشِ }**(٢).

فَهَلْ يَكُونُ بَعْثُ سَيِّدِنَا مُوسَى قَبْلَ رَسُولِ الله أَمْ مَاذَا ؟

قال النووي رَحِمَهُ اللَّهُ: « قَالَ الْقَاضِي: يُحْتَمَلُ أَنَّ هَذِهِ الصَّعْقَةَ صَعْقَةُ فَزَعٍ بَعْدَ الْبَعْثِ حِينَ تَنْشَقُّ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ، .. وأما قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ فَلَا أَدْرِي أَفَاقَ قَبْلِي }**، فَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَهُ قَبْلَ أَنْ يَعْلَمَ أَنَّهُ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الْأَرْضُ... قَالَ: وَيَجُوزُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَاهُ أَنَّهُ مِنَ الزُّمْرَةِ الَّذِينَ هُمْ أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُمُ الْأَرْضُ، فَيَكُونُ مُوسَى مِنْ تِلْكَ الزُّمْرَةِ وَهِيَ -وَاللهُ أَعْلَمُ- زُمْرَةُ الْأَنْبِيَاءِ

---

١) رواه مسلم برقم (٢٤١١).

٢) رواه البخاري برقم (٣٤١٤).

صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ » (١).

أَمَّا كَوْنُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى، فَهَذَا أَيْضًا فِيهِ إِشْكَالٌ؛ فَقَدْ جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قوله: { إِنَّكُمْ مَحْشُورُونَ حُفَاةً عُرَاةً غُرْلًا، ﴿ كَمَا بَدَأْنَآ أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُۥ ﴾ الآيَة. وَإِنَّ أَوَّلَ الْخَلَائِقِ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ الْخَلِيلُ، وَإِنَّهُ سَيُجَاءُ بِرِجَالٍ مِنْ أُمَّتِي فَيُؤْخَذُ بِهِمْ ذَاتَ الشِّمَالِ، فَأَقُولُ: يَارَبِّ، أَصْحَابِي. فَيَقُولُ: إِنَّكَ لَا تَدْرِي مَا أَحْدَثُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ كَمَا قَالَ الْعَبْدُ الصَّالِحُ: ﴿ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾ إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾ ﴾ } (المائدة)(٢).

فَهَذَا الْحَدِيثُ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْخَلِيلَ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى مِنَ الْخَلَائِقِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قال ابن حجر: « قَالَ الْقُرْطُبِيُّ فِي شَرْحِ مُسْلِمٍ: يَجُوزُ أَنْ يُرَادَ بِالْخَلَائِقِ مَا عَدَا نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلَمْ يَدْخُلْ هُوَ فِي عُمُومِ خِطَابِ نَفْسِهِ. وَتَعَقَّبَهُ تِلْمِيذُهُ الْقُرْطُبِيُّ أَيْضًا فِي التَّذْكِرَةِ، فَقَالَ: هَذَا حَسَنٌ لَوْلَا مَا جَاءَ مِنْ حَدِيثِ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {أَوَّلُ مَنْ يُكْسَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ خَلِيلُ اللهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ قُبْطِيَّتَيْنِ(٣)، ثُمَّ يُكْسَى مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

---

١) شرح النووي (١٥/ ١٣١ - ١٣٢).

٢) رواه البخاري ، برقم (٣٣٤٩)، ومسلم برقم (٢٨٦٠).

٣) الثياب القبطية: ثياب رقيقة غاية في الدقة والرقة والبياض.

حُلَّةً حَبِرَةً عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ }[١]،... وَفِي رِوَايَةٍ: { وَأَوَّلُ مِنْ يُكْسَى مِنَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ، يُكْسَى حُلَّةً مِنَ الْجَنَّةِ، وَيُؤْتَى بِكُرْسِيٍّ فَيُطْرَحُ لَهُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ، ثُمَّ يُؤْتَى بِي فَأُكْسَى حُلَّةً مِنَ الْجَنَّةِ لَا يَقُومُ لَهَا الْبَشَرُ، ثُمَّ أُوتَى بِكُرْسِيٍّ فَيُطْرَحُ لِي عَلَى سَاقِ الْعَرْشِ }[٢]... ثمَّ قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: وَقَدْ ظَهَرَ لِي أَنَّهُ يُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ خَرَجَ مِنْ قَبْرِهِ فِي ثِيَابِهِ الَّتِي مَاتَ فِيهَا، وَالْحُلَّةُ الَّتِي يُكْسَاهَا حِينَئِذٍ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ خُلْعَةُ الْكَرَامَةِ بِقَرِينَةِ إِجْلَاسِهِ عَلَى الْكُرْسِيِّ عِنْدَ سَاقِ الْعَرْشِ، فَتَكُونُ أَوَّلِيَّةُ إِبْرَاهِيمَ فِي الْكِسْوَةِ بِالنِّسْبَةِ لِبَقِيَّةِ الْخَلْقِ.

وَأَجَابَ الْحَلِيمِيُّ: بِأَنَّهُ يُكْسَى أَوَّلًا، ثُمَّ يُكْسَى نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى ظَاهِرِ الْخَبَرِ لَكِنَّ حُلَّةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَعْلَى وَأَكْمَلُ »[٣].

وَعَلَى كُلٍّ فَلَا يَلْزَمُ مِنْ كَوْنِ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَوَّلَ مَنْ يُكْسَى أَنْ يَكُونَ أَفْضَلَ مِنْ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، بَلْ يُكَافَأُ الْخَلِيلُ عَلَى عَزِيمَتِهِ وَصَبْرِهِ بِسَبْقِهِ إِلَى الْكِسَاءِ، وَيَبْقَى الْفَضْلُ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلى كُلِّ الْأَنْبِيَاءِ.

٢- أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ :

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ الْأَرْضُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ، وَأَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ، وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ، وَلَا فَخْرَ، وَلِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي

---

١) الزهد والرقائق لابن المبارك (٢/ ١٠٥).

٢) رواه البيهقي في الأسماء والصفات برقم (٨٣٩).

٣) "فتح الباري شرح صحيح البخاري" لابن حجر (١١/ ٣٨٤- ٣٨٥).

يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا فَخْرَ }(١).

- الشَّافِعُ: الطَّالِبُ لِغَيْرِهِ، وَالْمُشَفَّعُ: مَنْ تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ.

وَرَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هُوَ {أَوَّلُ شَافِعٍ} أَيْ: لَا يَتَقَدَّمُهُ إِلَى الشَّفَاعَةِ أَحَدٌ، لَا مِنَ الْمُرْسَلِينَ، وَلَا مِنَ الْمَلَائِكَةِ الْمُقَرَّبِينَ، وَلَا مِنْ غَيْرِهِمْ مِنَ الْآدَمِيِّينَ، وَهُوَ {أَوَّلُ مُشَفَّعٍ} أَيْ: أَوَّلُ مَنْ تُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ.

قال النووي: « قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ : مَذْهَبُ أَهْلِ السُّنَّةِ جَوَازُ الشَّفَاعَةِ عَقْلًا وَوُجُوبُهَا سَمْعًا بِصَرِيحِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَئِذٍ لَّا تَنفَعُ ٱلشَّفَٰعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَرَضِيَ لَهُۥ قَوْلًا ﴿١٠٩﴾ ﴾ (طه). وَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ٱرْتَضَىٰ ﴾ (الأنبياء:٢٨) وَأَمْثَالِهَا وَبِخَبَرِ الصَّادِقِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ جَاءَتِ الْآثَارُ الَّتِي بَلَغَتْ بِمَجْمُوعِهَا التَّوَاتُرَ بِصِحَّةِ الشَّفَاعَةِ فِي الْآخِرَةِ لِمُذْنِبِي الْمُؤْمِنِينَ، وَأَجْمَعَ السَّلَفُ وَالْخَلَفُ وَمَنْ بَعْدَهُمْ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ عَلَيْهَا، وَمَنَعَتِ الْخَوَارِجُ وَبَعْضُ الْمُعْتَزِلَةِ مِنْهَا، وَتَعَلَّقُوا بِمَذَاهِبِهِمْ فِي تَخْلِيدِ الْمُذْنِبِينَ فِي النَّارِ، وَاحْتَجُّوا بقوله تعالى: ﴿ فَمَا تَنفَعُهُمْ شَفَٰعَةُ ٱلشَّٰفِعِينَ ﴿٤٨﴾ ﴾ (المدثر). وَبِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ مَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ ﴿١٨﴾ ﴾ (غافر)، وَهَذِهِ الْآيَاتُ فِي الْكُفَّارِ، وَأَمَّا تَأْوِيلُهُمْ أَحَادِيثَ الشَّفَاعَةِ بِكَوْنِهَا فِي زِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ فَبَاطِلٌ وَأَلْفَاظُ الْأَحَادِيثِ فِي الْكِتَابِ وَغَيْرِهِ صَرِيحَةٌ فِي

---

١) رواه ابن ماجه، ح (٤٣٠٨)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٤٦٨).

بُطْلَانِ مَذْهَبِهِمْ وَإِخْرَاجِ مَنِ اسْتَوْجَبَ النَّارَ »[١] .

وَالشَّفَاعَةُ هِيَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الْمُشَارُ إِلَيْهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿عَسَىٰٓ أَن يَبْعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامًا مَّحْمُودًا ﴿٧٩﴾﴾ (الإسراء).

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سُئِلَ عَنْهَا، فَقَالَ: { هِيَ الشَّفَاعَةُ }[٢].

وَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { يَجْتَمِعُ الْمُؤْمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَيَقُولُونَ: لَوِ اسْتَشْفَعْنَا إِلَى رَبِّنَا، فَيَأْتُونَ آدَمَ فَيَقُولُونَ: أَنْتَ أَبُو النَّاسِ، خَلَقَكَ اللهُ بِيَدِهِ، وَأَسْجَدَ لَكَ مَلَائِكَتَهُ، وَعَلَّمَكَ أَسْمَاءَ كُلِّ شَيْءٍ، فَاشْفَعْ لَنَا عِنْدَ رَبِّكَ حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ[٣]، وَيَذْكُرُ ذَنْبَهُ فَيَسْتَحِي، ائْتُوا نُوحًا، فَإِنَّهُ أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ فَيَسْتَحِي، فَيَقُولُ: ائْتُوا خَلِيلَ الرَّحْمَنِ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُوسَى، عَبْدًا كَلَّمَهُ اللهُ وَأَعْطَاهُ التَّوْرَاةَ، فَيَأْتُونَهُ فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، وَيَذْكُرُ قَتْلَ النَّفْسِ بِغَيْرِ نَفْسٍ، فَيَسْتَحِي مِنْ رَبِّهِ، فَيَقُولُ: ائْتُوا عِيسَى عَبْدَ اللهِ وَرَسُولَهُ، وَكَلِمَةَ اللهِ وَرُوحَهُ، فَيَقُولُ: لَسْتُ هُنَاكُمْ، ائْتُوا مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، عَبْدًا غَفَرَ اللهُ لَهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِهِ وَمَا تَأَخَّرَ، فَيَأْتُونِي، فَأَنْطَلِقُ حَتَّى أَسْتَأْذِنَ عَلَى رَبِّي،

---

١) شرح النووي (١٥/ ٣٥) ، وانظر طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ العراقي (٢/ ١١٣).
٢) رواه أحمد برقم (٩٧٣٥)، والترمذي برقم (٣١٣٧)، وقال: حديث حسن.
٣) أي ليست لي القدرة على ذلك.

فَيُؤْذَنَ لِي، فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي وَقَعْتُ سَاجِدًا، فَيَدَعُنِي مَا شَاءَ اللهُ، ثُمَّ يُقَالُ: ارْفَعْ رَأْسَكَ وَسَلْ تُعْطَهْ، وَقُلْ يُسْمَعْ وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَحْمَدُهُ بِتَحْمِيدٍ يُعَلِّمُنِيهِ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ إِلَيْهِ فَإِذَا رَأَيْتُ رَبِّي مِثْلَهُ، ثُمَّ أَشْفَعُ فَيَحُدُّ لِي حَدًّا، فَأُدْخِلُهُمُ الجَنَّةَ، ثُمَّ أَعُودُ الرَّابِعَةَ، فَأَقُولُ مَا بَقِيَ فِي النَّارِ إِلَّا مَنْ حَبَسَهُ القُرْآنُ، وَوَجَبَ عَلَيْهِ الخُلُود }(١).

فَهَذَا الْحَدِيثُ يُشِيرُ إِلَى يَوْمٍ عَظِيمِ الْأَهْوَالِ وَالشَّدَائِدِ؛ لِهَذَا يَأْتِي النَّاسُ إِلَى آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ لِيَشْفَعَ لَهُمْ وَيُرِيحُهُمْ مِنْ هَوْلِ ذَلِكُ الْمَوْقِفِ، فَيَعْتَذِرُ، وَهَكَذَا يَعْتَذِرُ نُوحٌ وَمُوسَى وَعِيسَى عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، حَتَّى يَصِلَّ الْأَمْرُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ: { أَنَا لَهَا }(٢).

وَقَوْلُهُ: { حَتَّى يُرِيحَنَا مِنْ مَكَانِنَا هَذَا }. فِيهِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الشَّفَاعَةَ هَذِهِ إِنَّمَا تَكُونُ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ.

وَلَقَدِ اعْتَذَرَ آدَمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ؛ لِأَنَّهُ تَذَكَّرَ أَكْلَهُ مِنَ الشَّجَرَةِ وَغَضِبَ اللهُ مِنْ ذَلِكَ أَيْ (لَازِمَ الْغَضَبِ).

أَمَّا نُوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَبِذِكْرِهِ سُؤَالَهُ رَبَّهُ مَا لَيْسَ لَهُ بِهِ عِلْمٌ- فَيَسْتَحِي، كَمَا جَاءَ فِي قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾

---

١) رواه البخاري برقم (٤٤٧٦)، ومسلم برقم (٣٢٢).
٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٧٥١٠)، ومسلم برقم (٣٢٦).

قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ (هود). والمُرَادُ بِأَهْلِكَ: مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ وَعَمِلَ صَالحًا، وَأَنَّ ابْنَكَ لَمْ يُؤْمِنْ بِمَا أَرْسَلْتُكَ بِهِ، وَلَمْ يَعْمَلْ صَالحًا.

وَأَمَّا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فإِنَّهُ يَذْكُرُ خَطِيئَتَهُ، وَفِي رِوَايَةٍ:{ وَيَذْكُرُ خَطَايَاهُ الَّتِي أَصَابَهَا}. وَهِيَ كَمَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: {وَيَذْكُرُ ثَلَاثَ كَلِمَاتٍ}: الْأُولَى قَوْلُهُ: {إِنِّي سَقِيمٌ} وَالثانية: { بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا }، وَالثَّالِثَةُ فِي شَأْنِ سَارَةَ:{ وَهِيَ أُخْتِي }.

قال القسطلاني: « والحَقُّ أنَّها مَعَارِيضُ لَكِنْ لَمَّا كَانَتْ صُورَتُهَا صُورَةَ كَذِبٍ سَمَّاهَا بِهِ، وأَشْفَقَ مِنْهَا؛ اسْتِقْصَارًا لِنَفْسِهِ عَنْ مَقَامِ الشَّفَاعَةِ مَعَ وُقوعِهَا؛ لأَنَّ مَنْ كَانَ بِاللهِ أَعْرَفَ وَأَقْرَبَ مِنْزِلَةً كَانَ أَعْظَمَ خَطَرًا وأَشَدَّ خَشْيَةً »(١).

* وَقْفَةٌ عَقَدِيَّةٌ :

أولًا: كَيْفَ يَصِحُّ مَا يُنْسَبُ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مِنِ اعْتِذَارهم عَمَّا يُطْلَبُ مِنْهُمْ مِنْ أَمْرِ الشَّفَاعَةِ ؟

وَالْجَوَابُ عَنِ ذَلِكَ: أَنَّ الْأَنْبِيَاءَ صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الْوُقُوعِ فِي الْخَطَايَا، وَاللهُ حَفِظَ ظَوَاهِرَهُمْ وَبَوَاطِنَهُمْ مِنَ الْوُقُوعُ فِي الْمُحَرَّمِ وَالْمَكْرُوهِ، أَمَّا اعْتِذَارُهُمْ هَذَا فَهُوَ مِنْ بَابِ التَّوَاضُعِ فَقَطْ، وَأَنَّ حَسَنَاتِ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ.

فَهُمْ مَعْصُومُونَ مِنَ الْكَبَائِرِ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ، وَكَذَلِكَ الصَّغَائِرُ الَّتِي تُزْرِي

---

١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٧/ ٢٠٦).

بِصَاحِبِهَا، وَتَحُطُّ مَنْزِلَتَهُ، وَكَذَلِكَ مَا عَدَاهَا مِنَ الصَّغَائِرِ مِمَّا دَقَّ، وَذَلِكَ لِجَلَالِ مَنْصِبِ النُّبُوَّةِ.

أَمَّا السَّهْوُ وَالنِّسْيَانُ: « فَذَهَبَ مُعْظَمُ الْمُحَقِّقِينَ وَجَمَاهِيرُ الْعُلَمَاءِ إِلَى جَوَازِ ذَلِكَ وَوُقُوعِهِ مِنْهُمْ، وَهَذَا هُوَ الْحَقُّ، ثُمَّ لَا بُدَّ مِنْ تَنْبِيهِهِمْ عَلَيْهِ وَذِكْرِهِمْ إِيَّاهُ: إِمَّا فِي الْحِينِ عَلَى قَوْلِ جُمْهُورِ الْمُتَكَلِّمِينَ، وَإِمَّا قَبْلَ وَفَاتِهِمْ عَلَى قَوْلِ بَعْضِهِمْ؛ لِيَسُنُّوا حُكْمَ ذَلِكَ وَيُبَيِّنُوهُ قَبْلَ انْخِرَامِ مُدَّتِهِمْ، وَلِيَصِحَّ تَبْلِيغُهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ »(١).

وَلَقَدْ وَرَدَ عِدَّةُ آيَاتٍ فِي ذَلِكَ، مِثْلُ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ عَنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ ﴾ (طه). وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ يُونُسَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ سُبْحَٰنَكَ إِنِّى كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ ﴾ (الأنبياء)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ دَاوُدَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (ص)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ فَوَكَزَهُۥ مُوسَىٰ فَقَضَىٰ عَلَيْهِ ۖ قَالَ هَٰذَا مِنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ ﴾ (القصص:١٥)، وَمَا وَرَدَ فِي شَأْنِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ ﴿ وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ قَالَ يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ ۖ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ ۖ فَلَا تَسْـَٔلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۖ إِنِّىٓ أَعِظُكَ أَن تَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٤٦﴾ ﴾ (هود)، وَقَوْلُهُ تَعَالَى عَنْ إِبْرَاهِيمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾ ﴾ (الشعراء). وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي حَقِّ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

---

١) شرح النووي على مسلم (٣/ ٥٤).

﴿ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ ﴾ (الفتح:٢)، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ﴾ (محمد:١٩)، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ ۝٢ ٱلَّذِىٓ أَنقَضَ ظَهْرَكَ ۝٣ ﴾ (الشرح)، وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿ لَّوْلَا كِتَٰبٌ مِّنَ ٱللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَآ أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝٦٨ ﴾ (الأنفال:٦٨).

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: « فَإِنْ قُلْتَ: فَإِذَا نَفَيْتَ عَنْهُمْ -صَلَوَاتُ اللهِ عَلَيْهِمْ- الذُّنُوبَ وَالْمَعَاصِيَ.. فَمَا مَعْنَى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ﴾ (طه)، وَمَا تَكَرَّرَ فِي الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مِنَ اعْتِرَافِ الْأَنْبِيَاءِ بِذُنُوبِهِمْ، وَتَوْبَتِهِمْ، وَاسْتِغْفَارِهِمْ، وَبُكَائِهِمْ عَلَى مَا سَلَفَ مِنْهُمْ، وَإِشْفَاقِهِمْ؟، وَهَلْ يُشْفَقُ وَيُتَابُ وَيُسْتَغْفَرُ مِنْ لَا شَيْءَ؟!.

قَالَ: فَاعْلَمْ -وَفَّقَنَا اللهُ وَإِيَّاكَ- أَنَّ دَرَجَةَ الْأَنْبِيَاءِ فِي الرِّفْعَةِ وَالْعُلُوِّ وَالْمَعْرِفَةِ بِاللهِ وَسُنَّتِهِ فِي عِبَادِهِ وَعَظِيمِ سُلْطَانِهِ وَقُوَّةِ بَطْشِهِ مِمَّا يَحْمِلُهُمْ عَلَى الْخَوْفِ مِنْهُ جَلَّ جَلَالُهُ وَالْإِشْفَاقِ مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ بِمَا لَا يُؤَاخَذُ بِهِ غَيْرُهُمْ وَأَنَّهُمْ فِي تَصَرُّفِهِمْ بِأُمُورٍ لَمْ يُنْهَوْا عَنْهَا وَلَا أُمِرُوا بِهَا ثُمَّ أُوخِذُوا عَلَيْهَا وَعُوتِبُوا بِسَبَبِهَا وَحُذِّرُوا مِنَ الْمُؤَاخَذَةِ بِهَا وَأَتَوْهَا عَلَى وَجْهِ التَّأْوِيلِ أَوِ السَّهْوِ أَوْ تَزَيُّدٍ فِي الْمُبَاحِ -خَائِفُونَ وَجِلُونَ، وَهِيَ ذُنُوبٌ بِالْإِضَافَةِ إِلَى عُلُوِّ مَنْصِبِهِمْ وَمَعَاصٍ بِالنِّسْبَةِ إِلَى كَمَالِ طَاعَتِهِمْ، لَا أَنَّهَا كَذُنُوبِ غَيْرِهِمْ وَمَعَاصِيهِمْ، ... كَمَا قِيلَ: حَسَنَاتُ الْأَبْرَارِ سَيِّئَاتُ الْمُقَرَّبِينَ »[1].

---

١) "الشفا بتعريف حقوق المصطفى"، للقاضي عياض (٢/ ٣٨٥- ٣٨٧).

وعُمُومًا: فَهَذِهِ الْخَطَايَا الَّتِي ذُكِرَتْ لِلْأَنْبِيَاءِ: مِنْ أَكْلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنَ الشَّجَرَةِ نَاسِيًا، وَمِنْ دَعْوَةِ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَلَى الكُفَّارِ، وَقَتْلِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ لِكَافِرٍ لَمْ يُؤْمَرْ بِقَتْلِهِ، وَمُدَافَعَةِ إِبْرَاهِيمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكُفَّارَ بِقَوْلٍ عَرَّضَ بِهِ هُوَ فِيهِ- مِنْ وَجْهٍ- صَادِقٌ، وَهَذِهِ كُلُّهَا فِي حَقِّ غَيْرِهِمْ لَيْسَتْ بِذُنُوبٍ، لَكِنَّهُمْ أَشْفَقُوا مِنْهَا؛ إِذْ لَمْ تَكُنْ عَنْ أَمْرِ اللهِ تَعَالَى، وَعُتِبَ عَلَى بَعْضِهِمْ فِيهَا لِقَدْرِ مَنْزِلَتِهِمْ مِنْ مَعْرِفَةِ اللهِ تَعَالَى.

ثَانِيًا: كيف يَطْلُبُ الْمُؤْمِنونَ الشَّفَاعَةَ مِنْ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَفِيهِمْ مَنْ يَعْلَمُ أَنَّ هَذَا الْمَطْلَبَ الْعَظِيمَ لَا يَقْوَى عَلَى الْقِيَامِ بِأَعْبَائِهِ إِلَّا سَيِّدُ الْبَشَرِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: فَلِمَ لَمْ يَتَوَجَّهُوا بِالشَّفَاعَةِ إِلَيْهِ مِنْ أَوَّلِ الْأَمْرِ مِنْ نَبِيٍّ إلى نَبِيٍّ، ثُمَّ فِي النِّهَايَةِ إِلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟

وَأَجَابَ عَنْ ذَلِكَ الْقَسْطَلَانِيُّ رَحِمَهُ اللهُ بِقَوْلِهِ: « وَقَدْ أَلْهَمَ اللهُ النَّاسَ سُؤَالَ آدَمَ وَمَنْ بَعْدَهُ فِي الِابْتِدَاءِ، وَلَمْ يُلْهِمُوا سُؤَالَ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوَّلًا، مَعَ أَنَّ فِيهِمْ مَنْ سَمِعَ هَذَا الْحَدِيثَ مِنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَتَحَقَّقَ لَدَيْهِ اخْتِصَاصُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِذَلِكَ إِظْهَارًا لِفَضِيلَةِ نَبِيِّنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرِفْعَةِ مَنْزِلَتِهِ، وَكَمَالِ قُرْبِهِ وَتَفْضِيلِهِ عَلَى جَمِيعِ الْمَخْلُوقِينَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(١).

ثالثًا: مَا مَعْنَى قَوْلِ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَنْ نُوحٍ عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنَّهُ { **أَوَّلُ رَسُولٍ بَعَثَهُ اللهُ إِلَى أَهْلِ الأَرْضِ** }؟. وَفِيهِ إِشْكَالَانِ :

---

١) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري (٩/ ٣٢٦).

الإشْكَالُ الأوَّلُ: فَقَدْ سُئِلَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَنَبِيًّا كَانَ آدَمُ يَا رَسُولَ الله؟ قَالَ: **{ نَعَمْ، كَانَ نَبِيًّا، وَكَلَّمَهُ اللهُ قُبُلًا }**- بِضَمَّتَيْنِ- أَيْ: بِلَا وَاسِطَةٍ، وَكَذَلِكَ إِدْرِيسُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، فَقَدْ أُرْسِلَ قَبْلَ نُوحٍ، وَهَذَا يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نُوحًا لَيْسَ أَوَّلَ رَسُولٍ.

وَالْجَوَابُ عَنِ ذَلِكَ: أَنَّ قَوْلَهُ: **{أَوَّلُ رَسُولٍ}**. مَعْنَاهُ: أَوَّلُ مَنْ أُرْسِلَ إِلَى عُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَأَمَّا مَنْ بُعِثَ مِنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ فَإِنَّهُ كَانَ مَبْعُوثًا إِلَى الْمُوَحِّدِينَ، وَلَمْ تُعْزَلِ النُّبُوَّةُ وَالرِّسَالَةُ مِنْ آدَمَ إِلَى نُوحٍ. وفي قوله تعالى: ﴿**إِنَّآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ كَمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ نُوحٍ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ مِنۢ بَعْدِهِۦ**﴾ (النساء:١٦٣) قَدَّمَ الإشارةَ إلى رَسُولَ الله ثُمَّ نُوحًا مَعَ سَبْقِ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلَهُ؛ لِأَنَّ الْمَقْصُودَ تَشْبِيهُ الْوَحْيِ إِلَى رَسُولِ اللهِ بِالْوَحْيِ إِلَى الْأَنْبِيَاءِ الَّذِين بُعِثُوا لِعُبَّادِ الْأَوْثَانِ، وَنُوحٌ هُوَ أَوَّلُهُمْ (١).

الإشْكَالُ الثاني: قَوْلُهُ: **{ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ }**: يُفِيدُ عُمُومَ رِسَالَتِهِ، مَعَ الْعِلْمِ أَنَّ كُلَّ رَسُولٍ قَدْ أُرْسِلَ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، إِلَّا رَسُولَ اللهِ الْخَاتَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَدْ أُرْسِلَ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً.

وَالْجَوَابُ عَن ذلِكَ: بِأَنَّهُ لَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ عُمُومَ بَعْثَتِهِ، وَلَكِنَّهُ بَعْدَ الطُّوفَانِ لَمْ يَبْقَ إِلَّا مَنْ كَانَ مُؤْمِنًا مَعَهُ، وَقَدْ كَانَ مُرْسَلًا إِلَيْهِمْ فَهَذَا الْعُمُومُ لَمْ يَكُنْ فِي أَصْلِ بَعْثَتِهِ، وَإِنَّمَا اتَّفَقَ بِالْحَادِثِ الَّذِي وَقَعَ وَهُوَ انْحِصَارُ الْخَلْقِ فِي الْمَوْجُودِينَ بَعْدَ هَلَاكِ سَائِرِ النَّاسِ، وَأَمَّا نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَعُمُومُ رِسَالَتِهِ مِنْ أَصْلِ الْبَعْثَةِ.

---

١) "البراهين الساطعة" ص (٥١٢).

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: « وَعَلَى تَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مُرَادًا- أَيْ: عُمُومُ بَعْثَتِهِ- فَهُوَ مَخْصُوصٌ بِتَنْصِيصِهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي عِدَّةِ آيَاتٍ، عَلَى أَنَّ إِرْسَالَ نُوحٍ كَانَ إِلَى قَوْمِهِ، وَلَمْ يُذْكَرْ أَنَّهُ أُرْسِلَ إِلَى غَيْرِهِمْ، وَاسْتَدَلَّ بَعْضُهُمْ لِعُمُومِ بَعْثَتِهِ بِكَوْنِهِ دَعَا عَلَى جَمِيعِ مَنْ فِي الْأَرْضِ فَأُهْلِكُوا بِالْغَرَقِ إِلَّا أَهْلَ السَّفِينَةِ، وَلَوْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَيْهِمْ لَمَا أُهْلِكُوا لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴿١٥﴾﴾ (الإسراء:١٥).

وَقَدْ ثَبَتَ أَنَّهُ أَوَّلُ الرُّسُلِ، وَأُجِيبَ بِجَوَازِ أَنْ يَكُونَ غَيْرُهُ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ فِي أَثْنَاءِ مُدَّةِ نُوحٍ، وَعَلِمَ نُوحٌ بِأَنَّهُمْ لَمْ يُؤْمِنُوا فَدَعَا عَلَى مَنْ لَمْ يُؤْمِنْ مِنْ قَوْمِهِ وَمِنْ غَيْرِهِمْ فَأُجِيبَ، وَهَذَا جَوَابٌ حَسَنٌ، لَكِنْ لَمْ يُنْقَلْ أَنَّهُ نُبِّئَ فِي زَمَنِ نُوحٍ غَيْرُهُ، وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ مَعْنَى الْخُصُوصِيَّةِ لِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ بَقَاءَ شَرِيعَتِهِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، وَنُوحٌ وَغَيْرُهُ بِصَدَدِ أَنْ يُبْعَثَ نَبِيٌّ فِي زَمَانِهِ أَوْ بَعْدَهُ فَيَنْسَخَ بَعْضَ شَرِيعَتِهِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ دُعَاؤُهُ قَوْمَهُ إِلَى التَّوْحِيدِ بَلَغَ بَقِيَّةَ النَّاسِ فَتَمَادَوْا عَلَى الشِّرْكِ فَاسْتَحَقُّوا الْعِقَابَ... وَيُحْتَمَلُ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ فِي الْأَرْضِ عِنْدَ إِرْسَالِ نُوحٍ إِلَّا قَوْمُهُ، فَبَعْثَتُهُ خَاصَّةٌ لِكَوْنِهَا إِلَى قَوْمِهِ فَقَطْ، وَهِيَ عَامَّةٌ فِي الصُّورَةِ لِعَدِمِ وُجُودِ غَيْرِهِمْ، لَكِنْ لَوِ اتَّفَقَ وُجُودُ غَيْرِهِمْ لَمْ يَكُنْ مَبْعُوثًا إِلَيْهِمْ »(١).

وَبِهَذَا ظَهَرَ لَنَا هَذَا الْفَضْلُ الْعَظِيمُ، وَهُوَ عُمُومُ إِرْسَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً، وَلَوْلَا عُلُوُّ قَدْرِهِ عِنْدَ اللهِ لَمَا ولَّاهُ هَذَا الْمَنْصِبَ الْكَبِيرَ لِيَكُونَ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ جَمِيعًا.

---

١) فتح الباري لابن حجر (١/ ٤٣٦- ٤٣٧).

قَالَ ابْنُ الْجَوْزِيّ رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « كَانَ فِي الزَّمَانِ الْأَوَّلِ إِذَا بُعِثَ نَبِيٌّ إِلَى قَوْمٍ بُعِثَ غَيْرُهُ إِلَى آخَرِينَ، وَكَانَ يَجْتَمِعُ فِي الزَّمَنِ الْوَاحِدِ جَمَاعَةٌ مِنَ الرُّسُلِ، فَأَمَّا نَبِيُّنَا عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ فَإِنَّهُ انْفَرَدَ بِالْبَعْثَةِ فَصَارَ بِذَلِكَ لِلْكُلِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ يُزَاحِمَهُ أَحَدٌ »(١).

* رَحْمَةٌ وَسُمُوٌّ:

إِنَّ قِيَامَ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِهَذِهِ الْمُهِمَّةِ الْكُبْرَى وَقَبُولَهُ سُؤَالَ رَبِّهِ التَّخْفِيفَ عَنْ أَهْلِ الْمَوْقِفِ دَلِيلٌ عَلَى عَظِيمِ فَضْلِهِ وَرِفْعَةِ دَرَجَتِهِ، وَمِمَّا يَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ وَيُؤَكِّدُهُ مَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ قَدْ دَعَا بِهَا فَاسْتُجِيبَ، فَجَعَلْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ }**(٢).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ: « وَقَالَ ابْنُ بَطَّالٍ: فِي هَذَا الْحَدِيثِ بَيَانُ فَضْلِ نَبِيِّنَا صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى سَائِرِ الْأَنْبِيَاءِ حَيْثُ آثَرَ أُمَّتَهُ عَلَى نَفْسِهِ وَأَهْلِ بَيْتِهِ بِدَعْوَتِهِ الْمُجَابَةِ، وَلَمْ يَجْعَلْهَا أَيْضًا دُعَاءً عَلَيْهِمْ بِالْهَلَاكِ، كَمَا وَقَعَ لِغَيْرِهِ مِمَّنْ تَقَدَّمَ.

وَقَالَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ: هَذَا مِنْ حُسْنِ تَصَرُّفِهِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَ الدَّعْوَةَ فِيمَا يَنْبَغِي وَمِنْ كَثْرَةِ كَرَمِهِ؛ لِأَنَّهُ آثَرَ أُمَّتَهُ عَلَى نَفْسِهِ، وَمِنْ صِحَّةِ نَظَرِهِ؛ لِأَنَّهُ جَعَلَهَا لِلْمُذْنِبِينَ مِنَ أُمَّتِهِ لِكَوْنِهِمْ أَحْوَجَ إِلَيْهَا مِنَ الطَّائِعِينَ ...

وَقَالَ النَّوَوِيُّ: فِيهِ كَمَالُ شَفَقَتِهِ وَرَأْفَتِهِ وَاهْتِمَامِهِ بِالنَّظَرِ فِي مَصَالِحِهِمْ فَجَعَلَ

---

١) انظر: عمدة القاري شرح صحيح البخاري للبدر العيني (٤/ ٩).
٢) رواه البخاري برقم (٦٣٠٥).

دَعْوَتَهُ فِي أَهَمِّ أَوْقَاتِ حَاجَتِهِمْ »(١).

* **اخْتِصَاصُهُ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **بِالشَّفَاعَةِ**:

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **{ وَأُعْطِيتُ الشَّفَاعَةَ }**(٢).

وَالشَّفَاعَةُ هِي : كَلَامُ الشَّفِيعِ لِلْمَلِكِ فِي حَاجَةٍ يَسْأَلُهَا لِغَيْرِهِ، وَالشَّافِعُ: الطَّالِبُ لِغَيْرِهِ يَتَشَفَّعُ بِهِ إِلى الْمَطْلُوبِ (٣).

وَقِيلَ: الشَّفَاعَةُ: هِيَ سُؤَالُ فِعْلِ الْخَيْرِ وَتَرْكِ الضَّرَرِ عَنِ الْغَيْرِ لِأَجْلِ الْغَيْرِ عَلَى سَبِيلِ الضَّرَاعَةِ (٤).

قال ابن حجر: « قَالَ ابْنُ دَقِيقِ الْعِيدِ: الْأَقْرَبُ أَنَّ اللَّامَ فِيهَا لِلْعَهْدِ. وَالْمُرَادُ هُنَا: الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى فِي إِرَاحَةِ النَّاسِ مِنْ هَوْلِ الْمَوْقِفِ، ولا خلاف في وقوعها. اهـ ، وَكَذَا جَزَمَ النَّوَوِيُّ وَغَيْرُهُ. وَقِيلَ: الشَّفَاعَةُ الَّتِي اخْتَصَّ بِهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ لَا يُرَدُّ فِيمَا يَسْأَلُ. وَقِيلَ: الشَّفَاعَةُ فِي خُرُوجِ مَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ مِنْ إِيمَانٍ... وَالَّذِي يَظْهَرُ لِي أَنَّ هَذِهِ مُرَادَةٌ مَعَ الْأُولَى »(٥).

وقَالَ الْبَدْرُ الْعَيْنِيُّ: « مَا خَصَّهُ اللهُ بِهِ مِنَ الشَّفَاعَةِ أَنَّهُ لَا يَشْفَعُ فِي أَحَدٍ يَوْمَ

---

١) فتح الباري (١١/ ٩٧).
٢) هو جزء من حديث متفق عليه : رواه البخاري برقم (٣٣٥) ، ومسلم برقم (٥٢١) .
٣) لسان العرب لابن منظور (٨/ ١٨٤).
٤) عمدة القاري شرح صحيح البخاري للبدر العيني (٤/ ١٠).
٥) فتح الباري (١/ ٤٣٨).

الْقِيَامَةِ إِلَّا شُفِّعَ فِيهِ »(١).

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ رَحِمَهُ اللَّهُ: « وَقَدْ عُرِفَ بِالنَّقْلِ الْمُسْتَفِيضِ سُؤَالُ السَّلَفِ الصَّالِحِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ شَفَاعَةَ نَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَغْبَتُهُمْ فِيهَا، وَعَلَى هَذَا لَا يُلْتَفَتُ إِلَى قَوْلِ مَنْ قَالَ: إِنَّهُ يُكْرَهُ أَنْ يَسْأَلَ الْإِنْسَانُ اللهَ تَعَالَى أَنْ يَرْزُقَهُ شَفَاعَةَ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِكَوْنِهَا لَا تَكُونُ إِلَّا لِلْمُذْنِبِينَ، فَإِنَّهَا قَدْ تَكُونُ لِتَخْفِيفِ الْحِسَابِ وَزِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ، ثُمَّ كُلُّ عَاقِلٍ مُعْتَرِفٌ بِالتَّقْصِيرِ مُحْتَاجٌ إِلَى الْعَفْوِ غَيْرُ مُعْتَدٍّ بِعَمَلِهِ مُشْفِقٌ مِنْ أَنْ يَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ، وَيَلْزَمُ هَذَا الْقَائِلَ أَنْ لَا يَدْعُوَ بِالْمَغْفِرَةِ وَالرَّحْمَةِ؛ لِأَنَّهَا لِأَصْحَابِ الذُّنُوبِ، وَهَذَا كُلُّهُ خِلَافُ مَا عُرِفَ مِنْ دُعَاءِ السَّلَفِ وَالْخَلَفِ »(٢).

* أقسام الشفاعة :

وَاعْلَمْ أَنَّ الشَّفَاعَةَ أَقْسَامٌ :

الْأُولَى: هِيَ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى: شَفَاعَةُ الْحَشْرِ؛ لِتَعْجِيلِ الْحِسَابِ وَإِرَاحَةِ أَهْلِ الْمَوْقِفِ مِنْ أَهْوَالِهِ وَطُولِهِ ، وَهِي مُخْتَصَّةٌ بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّانِيَةُ: الشَّفَاعَةُ لِإِدْخَالِ قَوْمٍ الْجَنَّةَ بِغَيْرِ حِسَابٍ وَهِيَ أَيْضًا خَاصَّةٌ بِنَبِيِّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّالِثَةُ: الشَّفَاعَةُ لِقَوْمٍ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ، فَيَشْفَعُ فِيهِم نَبِيُّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَمَنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى.

---

١) عمدة القاري شرح صحيح البخاري (٤/ ١٠).
٢) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٣٦).

الرَّابِعَةُ: الشَّفَاعَةُ فِيمَنْ دَخَلَ النَّارَ مِنَ الْمُوَحِّدِينَ الْمُذْنِبِينَ، فَيَشْفَعُ لَهُمْ هُوَ وَغَيْرُهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَالْمُؤْمِنِينَ.

الْخَامِسَةُ: الشَّفَاعَةُ لِزِيَادَةِ الدَّرَجَاتِ فِي الْجَنَّةِ لِأَهْلِهَا.

قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَةٌ مُسْتَجَابَةٌ، فَتُعَجَّلُ لِكُلِّ نَبِيٍّ دَعْوَتُهُ، وَإِنِّي اخْتَبَأْتُ دَعْوَتِي شَفَاعَةً لِأُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ، فَهِيَ نَائِلَةٌ -إِنْ شَاءَ اللهُ تَعَالَى- مَنْ مَاتَ مِنْ أُمَّتِي لَا يُشْرِكُ بِاللهِ شَيْئًا** }(١).

وَفِي الْحَدِيثِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَلَا قَوْلَ اللهِ ﷻ فِي إِبْرَاهِيمَ: ﴿ **رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ ۖ فَمَن تَبِعَنِى فَإِنَّهُۥ مِنِّى ۖ وَمَنْ عَصَانِى فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٦﴾** ﴾ (إبراهيم)، وَقَالَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ **إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ ۖ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١١٨﴾** ﴾ (المائدة)، فَرَفَعَ يَدَيْهِ وَقَالَ: { **اللَّهُمَّ أُمَّتِي. وَبَكَى، فَقَالَ اللهُ ﷻ: يَا جِبْرِيلُ، اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ -وَرَبُّكَ أَعْلَمُ- فَسَلْهُ: مَا يُبْكِيكَ؟ فَأَتَاهُ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَسَأَلَهُ، فَأَخْبَرَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِمَا قَالَ - وَهُوَ أَعْلَمُ - فَقَالَ اللهُ تَعَالَى: يَا جِبْرِيلُ اذْهَبْ إِلَى مُحَمَّدٍ فَقُلْ: إِنَّا سَنُرْضِيكَ فِي أُمَّتِكَ وَلَا نَسُوءُكَ** }(٢).

٣- خَطِيبُ الْقَوْمِ إِذَا وَفَدُوا:

عِنْدَمَا تُحَالُ الشَّفَاعَةُ الْعُظْمَى إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإنه يَقُولُ: { **أَنَا لَهَا** }، وَذَلِكَ

---

١) رواه مسلم برقم (١٩٩).
٢) رواه مسلم برقم (٢٠٢).

لِمَا يَرَاهُ مِنْ أَهْلِ الْمَوْقِفِ، وَمَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةٍ، فَيَسْتَأْذِنُ عَلَى رَبِّهِ فَيُؤْذَنُ لَهُ، فَيَقُومُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَيَحْمَدُهُ بِمَحَامِدَ يُلْهِمُهُ اللهُ إِيَّاهَا لَا يَقْدِرُ عَلَيْهَا أَحَدٌ غيره، ثم يخرُّ سَاجِدًا لله ، فَيُقَالُ لَهُ: يَا مُحَمَّدُ، ارْفَعْ رَأْسَكَ، وَقُلْ يُسْمَعْ لَكَ، وَسَل تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ. فَأَقُولُ: { رَبِّ أُمَّتِي أُمَّتِي }(١). وَلَا يَزَالُ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُنَاشِدُ رَبَّه التَّخْفِيفَ فِي مَوْقِفٍ قَدِ اعْتَذَرَ فِيهِ الرُّسُلُ عَنِ الْكَلَامِ وَرَأَوْا بِإِجْمَاعٍ أَنَّ الْكَفَاءَةَ لَهُ وَحْدَهُ، وَأَنَّ الْكَلَامَ الْيَوْمَ لَهُ دُونَ غَيْرِهِ. ﴿ يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ ﴾(هود: ١٠٥).

أَجَلْ، إِنَّهُ يَوْمَ لَا يَتَكَلَّمُ أَحَدٌ فِيهِ إِلَّا بِإِذْنِ مِنَ الله تَعَالَى، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلرُّوحُ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ صَفًّا ۖ لَّا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ ٱلرَّحْمَٰنُ وَقَالَ صَوَابًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (النبأ).

فَلَا شَفَاعَةَ وَلَا حُجَّةَ وَلَا اعْتِذَارَ إِلَّا بِإِذْنٍ مِنَ الله، وَلَا يَتَكَلَّمُ الْمُذْنِبُونَ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فِي الْكَلَامِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنطِقُونَ ﴿٣٥﴾ وَلَا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (المرسلات).

وَمَهْمَا تَكَلَّمَ الْمُذْنِبُونَ فَلَا فَائِدَةَ مِنْ كَلَامِهِمْ؛ لِأَنَّ كَلَامَهُمْ إِمَّا إِقْرَارٌ مِنْهُمْ بِذُنُوبِهِمْ ، أَوْ لَوْمٌ لِمَنْ أَضَلَّهُمْ وَكَانَ سَبَبًا فِي غَوَايَتِهِمْ.

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { وَلَا يَتَكَلَّمُ يَوْمَئِذٍ أَحَدٌ إِلَّا الرُّسُلُ، وَكَلَامُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ : اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ }(٢).

---

١) رواه البخاري برقم (٧٥١٠)، ومسلم برقم (١٩٣) .

٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٨٠٦)، ومسلم برقم (١٨٢).

قَالَ النَّوَوِيُّ: « مَعْنَاهُ: لِشِدَةِ الْأَهْوَالِ، وَمَعْنَاهُ: لَا يَتَكَلَّمُ فِي حَالِ الْإِجَازَةِ وَإِلَّا فَفِي يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَوَاطِنُ يَتَكَلَّمُ النَّاسُ فِيهَا، وَتُجَادِلُ كُلُّ نَفْسٍ عَنْ نَفْسِهَا، وَيَسْأَلُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، وَيَتَلَاوَمُونَ، وَيُخَاصِمُ التَّابِعُونَ الْمَتْبُوعِينَ »(١).

لَكِنَّ الرَّسُولَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُؤْذَنُ لَهُ فِي الْكَلَامِ وَيُسْمَعُ لِقَوْلِهِ. وَيُؤْذَنُ لَهُ فِي الشَّفَاعَةِ فَتُقْبَلُ شَفَاعَتُهُ، كَمَا جَاءَ عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجًا إِذَا بُعِثُوا، وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا، لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلَا فَخْرَ }**(٢).

فَقَوْلُهُ: **{وَأَنَا خَطِيبُهُمْ}** أَيْ: بَيْنَ يَدَيِ الله عِنْدَ الشَّفَاعَةِ يَحْمَدُ رَبَّهُ بِمَحَامِدَ لَمْ يُسْبَقْ إِلَيْهَا، وَقَوْلُهُ: **{إِذَا وَفَدُوا}** أَيْ: إِذَا وَقَفُوا عَلَى رَبِّهِمْ لِلْحِسَابِ وَفَصْلِ الْقَضَاءِ، {وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ} بِقَبُولِ شَفَاعَتِي **{ إِذَا أَيِسُوا }** أَيْ: مِنَ الشَّفَاعَةِ حَيْثُ يَعْتَذِرُ عَنْهَا جَمِيعُ الرُّسُلِ، **{ لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدَيَّ }** وَذَلِكَ هُوَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ.

*** المَقَامُ المَحْمُودُ :**

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ **وَمِنَ ٱلَّيۡلِ فَتَهَجَّدۡ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ عَسَىٰٓ أَن يَبۡعَثَكَ رَبُّكَ مَقَامٗا مَّحۡمُودٗا** ﴿٧٩﴾ ﴾ (الإسراء).

قَالَ الْإِمَامُ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللَّهُ: « أَيْ: افْعَلْ هَذَا الَّذِي أَمَرْتُكَ بِهِ لِنُقِيمَكَ يَوْمَ

---

١) شرح النووي على صحيح مسلم (٣/ ٢٠- ٢١).
٢) رواه الترمذي برقم (٣٦١٠) ، وقال: حسن غريب .

الْقِيَامَةِ مَقَامًا يَحْمَدُكَ فِيهِ الْخَلَائِقُ كُلُّهُمْ وَخَالِقُهُمْ تَبَارَكَ وَتَعَالَى »(١).

قَالَ ابْنُ جَرِيرٍ: « قَالَ أَكْثَرُ أَهْلِ العِلْمِ: ذَلِكَ هُوَ الْمَقَامِ الَّذِي هُوَ يَقُومُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لِلشَّفَاعَةِ لِلنَّاسِ لِيُرِيحَهُمْ رَبُّهُمْ مِنْ عَظِيمِ مَا هُمْ فِيهِ مِنْ شِدَّةِ ذَلِكَ الْيَوْمِ »(٢).

وَعَنْ حُذَيْفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « يُجْمَعُ النَّاسُ فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ يُسْمِعُهُمُ الدَّاعِيَ وَيَنْفُذُهُمُ الْبَصَرُ، حُفَاةً عُرَاةً كَمَا خُلِقُوا، قِيَامًا، سُكُوتًا لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَيُنَادَى مُحَمَّدٌ فَيَقُولُ: **{ لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ، وَالْمَهْدِيُّ مَنْ هَدَيْتَ، وَعَبْدُكَ بَيْنَ يَدَيْكَ وَلَكَ وَإِلَيْكَ، تَبَارَكْتَ وَتَعَالَيْتَ، سُبْحَانَكَ رَبَّ الْبَيْتِ. فَذَلِكَ الْمَقَامُ الْمَحْمُودُ الَّذِي قَالَ اللهُ }** »(٣).

وَعَنْ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « إِنَّ النَّاسَ يَصِيرُونَ يَوْمَ القِيَامَةِ جُثًا، كُلُّ أُمَّةٍ تَتْبَعُ نَبِيَّهَا يَقُولُونَ: يَا فُلَانُ اشْفَعْ، يَا فُلَانُ اشْفَعْ، حَتَّى تَنْتَهِيَ الشَّفَاعَةُ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَذَلِكَ يَوْمَ يَبْعَثُهُ اللهُ المَقَامَ المَحْمُودَ »(٤). وَفِي رِوَايَةٍ: « فَيَوْمَئِذٍ يَبْعَثُهُ اللهُ مَقَامًا مَحْمُودًا يَحْمَدُهُ أَهْلُ الْجَمْعِ كُلُّهُمْ »(٥).

---

١) تفسير القرآن العظيم، لابن كثير (٥/ ٩٤).
٢) تفسير جامع البيان في تأويل القرآن، لابن جرير الطبري (١٧/ ٥٢٦).
٣) رواه الحاكم في مستدركه، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يُخْرِجَاهُ.
٤) رواه البخاري برقم (٤٧١٨).
٥) رواه البخاري برقم (١٤٧٥).

وَهَذَا هُوَ الَّذِي وَرَدَ فِي حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مرفوعًا: { أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ فَأُكْسَى الْحُلَّةَ مِنْ حُلَلِ الْجَنَّةِ، ثُمَّ أَقُومُ عَنْ يَمِينِ الْعَرْشِ لَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْخَلَائِقِ يَقُومُ ذَلِكَ الْمَقَامَ غَيْرِي }(١).

٤- حَامِلُ لِوَاءِ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ :

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلَا فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ آدَمَ فَمَنْ سِوَاهُ إِلَّا تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلَا فَخْرَ }(٢).

واللِّوَاءُ: الرَّايَةُ وَالْعَلَمُ الَّذِي يُحْمَلُ فِي الْحُرُوبِ، وَهوَ عَلَامَةٌ يُعْرَفُ بِهَا مَوْضِعُ تَقَدُّمِ الْجَيْشِ، ويَكُونُ غَالِبًا مَعَ أَمِيرِ الْجَيْشِ، وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { لِوَاءُ الْحَمْدِ بِيَدِي يَوْمَئِذٍ } أَيْ: يَوْمَ الْقِيَامَةِ.

قَالَ الْمُنَاوِيُّ: « أَيْ رَايَتُهُ يَوْمَئِذٍ بِيَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَرْيًا عَلَى عَادَةِ الْعَرَبِ أَنَّ اللِّوَاءَ إِنَّمَا يَكُونُ مَعَ كَبِيرِ الْقَوْمِ لِيُعْرَفَ مَكَانُهُ... وَأَنه لِوَاءٌ مَعْنَوِيٌّ، وهُوَ الحَمْدُ، وَالْمُرَادُ أَنَّهُ يُشْهَرُ بِالْحَمْدِ يَوْمَئِذٍ »(٣).

إِنَّ مَنْصِبَ السِّيَادَةِ الَّذِي تَبَوَّأَهُ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ حَقَّقَ اللهُ لَهُ بِهِ مَا

---

١) رواه الترمذي في سننه برقم (٣٦١١)، وقال: حسن غريب .
٢) سبق تخريجه .
٣) فيض القدير شرح الجامع الصغير لعبد الرءوف المناوي (٣/ ٤٠) - بتصرف.

يَحْمَدُهُ عَلَيْهِ الْأَوَّلُونَ وَالآخِرُونَ، وَكَانَ جَدِيرًا بَعْدَ ذَلِكَ بِأَنْ يَكُونَ الْمُرْسَلُونَ تَحْتَ هَذَا اللِّوَاءِ الْعَظِيمِ الَّذِي يَحْمِلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِيُلْقِيَ الْبَيَانَ نِيَابَةً عَنِ الرُّسُلِ وَعَنْ أُمَمِهِمْ وَعَنْ أُمَّتِهِ، وَيَعْتَذِرُ إِلَى الله تَعَالَى، مُعَبِّرًا عَنْ لِسَانِ حَالِهِمْ وَحَالِ أُمَمِهِمْ، فَيَقْبَلُ اللهُ وَسَاطَتَهُ، وَيُدْخِلُ عَلَيْهِ وَعَلَى مَنْ خَلْفَهُ مِنْ أَتْبَاعِ الْمُرْسَلِينَ الصَّادِقِينَ سُرُورًا بِلَا حُدُودٍ، وَعَطَاءً بِلَا قُيُودٍ، وَيَكُونُ جَوَابُ الله الْأَكْرَمِ لِلنَّبِيِّ الْمُشَفَّعِ: { **سَلْ تُعْطَهْ، وَاشْفَعْ تُشَفَّعْ، وَقُلْ يُسْمَعْ** }، فَيَنْعَقِدُ مِنْ أَجْلِ ذَلِكَ لِهَذَا النَّبِيِّ الْقَائِدِ وَالرَّسُولِ الشَّفِيعِ الْمُشَفَّعِ الْخَطِيبِ الْمُلْهَمِ { **لِوَاءُ الْحَمْدِ** } لِيَكُونَ مَعْرُوفًا بِهِ لِأَهْلِ الْمَوْقِفِ جَمِيعًا ، فَهُوَ لِوَاءٌ مَعْنَوِيٌّ وَلِوَاءٌ حِسِّيٌّ.

٥- أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ :

كَمَا جَاءَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **أَنَا أَكْثَرُ الْأَنْبِيَاءِ تَبَعاً يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ يَقْرَعُ بَابَ الْجَنَّةِ** }(١). وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **آتِي بَابَ الْجَنَّةِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَسْتَفْتِحُ، فَيَقُولُ الْخَازِنُ: مَنْ أَنْتَ؟ فَأَقُولُ: مُحَمَّدٌ. فَيَقُولُ: بِكَ أُمِرْتُ لَا أَفْتَحُ لأَحَدٍ قَبلَكَ** }(٢).

٦- أُعْطِيَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْكَوْثَرَ :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَعْطَيْنَٰكَ ٱلْكَوْثَرَ ۝١ ﴾ (الكوثر).

وَعَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: مَا الكَوْثَرُ؟ قَالَ: { **ذَاكَ نَهْرٌ أَعْطَانِيهِ اللهُ - يَعْنِي فِي الجَنَّةِ - أَشَدُّ بَيَاضًا مِنَ اللَّبَنِ، وَأَحْلَى مِنَ العَسَلِ، فِيهَا**

---

١) رواه مسلم برقم (٣٣١).

٢) رواه مسلم برقم (٣٣٣).

طَيْرٌ أَعْنَاقُهَا كَأَعْنَاقِ الْجُزُرِ }، قَالَ عُمَرُ: إِنَّ هَذِهِ لَنَاعِمَةٌ. فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَكَلَتُهَا أَنْعَمُ مِنْهَا }(١).

٧- مِنْبَرُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى حَوْضِهِ:

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { مَا بَيْنَ بَيْتِي وَمِنْبَرِي رَوْضَةٌ مِنْ رِيَاضِ الْجَنَّةِ ، وَمِنْبَرِي عَلَى حَوْضِي }(٢).

وَهَذَا الْمِنْبَرُ الَّذِي كَانَ يَخْطُبُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَسْجِدِهِ فِي الدُّنْيَا سَيُنْصَبُ عَلَى حَوْضِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهَذَا الْحَوْضِ الَّذِي قَالَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ ، وَمَاؤُهُ أَبْيَضُ مِنَ الْوَرِقِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ ، كِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ لا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا }(٣).

٨- عُمُومُ بَعْثَتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:

كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ قَبْلَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً، قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾.

أَمَّا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ بُعِثَ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً لقَوْلِهِ تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (سبأ).

---

١) رواه أحمد برقم (١٣٣٠٦)، ورواه الترمذي برقم (٢٥٤٢)، وقال: حديث حسن.
٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (١١٩٦)، ومسلم برقم (١٣٩١) .
٣) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٦٥٧٩)، ومسلم برقم (٢٢٩٢).

وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً }(١)، وَفِي رِوَايَةٍ: { كَانَ كُلُّ نَبِيٍّ يُبْعَثُ إِلَى قَوْمِهِ خَاصَّةً وَبُعِثْتُ إِلَى كُلِّ أَحْمَرَ وَأَسْوَدَ }(٢). قِيلَ: الْمُرَادُ بِالْأَحْمَرِ الْعَجَمُ، وَبِالْأَسْوَدِ الْعَرَبُ، وَقِيلَ: الْأَحْمَرُ الْإِنْسُ، وَالْأَسْوَدُ الْجِنُّ.

وَهَذَا دَلِيلٌ عَلَى عُلُوِّ قَدْرِهِ وَشَأْنِهِ عِنْدَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ.

٩- تَحْلِيلُ الْغَنَائِمِ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأُمَّتِهِ خَاصَّةً:

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ }(٣). وقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَأُحِلَّتْ لِيَ الْمَغَانِمُ وَلَمْ تَحِلَّ لِأَحَدٍ قَبلي.. }(٤).

وَالْغَنَائِمُ: جَمْعُ غَنِيمَةٍ: وَهِيَ "مَا أُخِذَ مِنَ الْكُفَّارِ قَهْرًا وَبِقِتَالٍ"، وَتُسَمَّى الْغَنِيمَةُ نَفْلًا أَوْ نَافِلَةً؛ لِأَنَّهَا زِيَادَةٌ فِيمَا أَحَلَّ اللهُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ مِمَّا كَانَ مُحَرَّمًا عَلَى غَيْرِهَا، قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: « الْأَنْفَالُ: الْمَغَانِمُ »(٥).

وَأَمَّا الْفَيْءُ: فَهُوَ " مَا أُخِذَ بِغَيْرِ قِتَالٍ بِخِلَافِ الْغَنِيمَةِ ".

وَقَدْ أَحَلَّ اللهُ الْغَنَائِمَ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ إِكْرَامًا لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَرَحْمَةً بِأُمَّتِهِ، وَمُكَافَأَةً لِلْمُجَاهِدِينَ، وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ لِرَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِأُمَّتِهِ دُونَ مَنْ سَبَقَ.

---

١) رواه مسلم برقم (٥٢٣).
٢) رواه مسلم برقم (٥٢١).
٣) رواه البخاري برقم (٣١٢٢).
٤) رواه البخاري برقم (٣٣٥).
٥) أورده البخاري في صحيحه، تفسير سورة الأنفال، (٦/ ٦١).

قَالَ تَعَالَى: ﴿ وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ ﴾ (الفتح). وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا۟ مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٦٩﴾ ﴾ (الأنفال).

قال ابن حجر رَحِمَهُ ٱللَّهُ : « قَالَ الْخَطَّابِي: كَانَ مَنْ تَقَدَّمَ عَلَى ضَرْبَيْنِ، مِنْهُمْ مَنْ لَمْ يُؤْذَنْ لَهُ فِي الْجِهَادِ فَلَمْ تَكُنْ لَهُمْ مَغَانِمُ، وَمَنْهُمْ مَنْ أُذِنَ لَهُ فِيهِ لَكِنْ كَانُوا إِذَا غَنِمُوا شَيْئًا لَمْ يَحِلَّ لَهُمْ أَنْ يَأْكُلُوهُ وَجَاءَتْ نَارٌ فَأَحْرَقَتْهُ، وَقِيلَ: الْمُرَادُ: أَنَّهُ خُصَّ بِالتَّصَرُّفِ فِي الْغَنِيمَةِ يَصْرِفُهَا كَيْفَ يَشَاءُ، وَالْأَوَّلُ أَصْوَبُ. وَهُوَ أَنْ مَنْ مَضَى لَمْ تَحِلَّ لَهُمُ الْغَنَائِمُ أَصْلًا »(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ، فَقَالَ لِقَوْمِهِ: لَا يَتْبَعْنِي رَجُلٌ قَدْ مَلَكَ بُضْعَ امْرَأَةٍ، وَهُوَ يُرِيدُ أَنْ يَبْنِيَ بِهَا، وَلَمَّا يَبْنِ، وَلَا آخَرُ قَدْ بَنَى بُنْيَانًا، وَلَمَّا يَرْفَعْ سُقُفَهَا، وَلَا آخَرُ قَدِ اشْتَرَى غَنَمًا - أَوْ خَلِفَاتٍ - وَهُوَ مُنْتَظِرٌ وِلَادَهَا ، قَالَ: فَغَزَا فَأَدْنَى لِلْقَرْيَةِ حِينَ صَلَاةِ الْعَصْرِ، أَوْ قَرِيبًا مِنْ ذَلِكَ، فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ، وَأَنَا مَأْمُورٌ، اللهُمَّ، احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا، فَحُبِسَتْ عَلَيْهِ حَتَّى فَتَحَ اللهُ عَلَيْهِ ، قَالَ: فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ، فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ، فَقَالَ: فِيكُمْ غُلُولٌ، فَلْيُبَايِعْنِي مِنْ كُلِّ قَبِيلَةٍ رَجُلٌ، فَبَايَعُوهُ، فَلَصِقَتْ يَدُ رَجُلٍ بِيَدِهِ، فَقَالَ: فِيكُمُ الْغُلُولُ، فَلْتُبَايِعْنِي قَبِيلَتُكَ، فَبَايَعَتْهُ ، قَالَ: فَلَصِقَتْ بِيَدِ رَجُلَيْنِ أَوْ ثَلَاثَةٍ، فَقَالَ:

---

١) فتح الباري (١/ ٤٣٨).

فِيكُمُ الْغُلُولُ، أَنْتُمْ غَلَلْتُمْ، قَالَ: فَأَخْرَجُوا لَهُ مِثْلَ رَأْسِ بَقَرَةٍ مِنْ ذَهَبٍ، قَالَ: فَوَضَعُوهُ فِي الْمَالِ وَهُوَ بِالصَّعِيدِ، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ فَأَكَلَتْهُ، فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا، ذَلِكَ بِأَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا، فَطَيَّبَهَا لَنَا }(١).

وَقَوْلُهُ فِي الْحَدِيثِ: { غَزَا نَبِيٌّ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ } أَيْ: أَرَادُ الْغَزْوَ، وَهَذَا النَّبِيُّ هُوَ يُوشَعُ بْنُ نُونَ. لِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { إِنَّ الشَّمْسَ لَمْ تُحْبَسْ عَلَى بَشَرٍ إِلَّا لِيُوشَعَ لَيَالِيَ سَارَ إِلَى بَيْتِ الْمُقْدِسِ }(٢).

وَقَوْلُهُ: { فَقَالَ لِلشَّمْسِ: أَنْتِ مَأْمُورَةٌ وَأَنَا مَأْمُورٌ } :

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: « الْفَرْقُ بَيْنَ الْمَأْمُورَيْنِ أَنَّ أَمْرَ الْجَمَادَاتِ أَمْرُ تَسْخِيرٍ وَأَمْرَ الْعُقَلَاءِ أَمْرُ تَكْلِيفٍ، وَخِطَابُهُ لِلشَّمْسِ يَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ عَلَى حَقِيقَتِهِ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى خَلَقَ فِيهَا تَمْيِيزًا وَإِدْرَاكًا، ... وَيَحْتَمِلُ أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ عَلَى سَبِيلِ اسْتِحْضَارِهِ فِي النَّفْسِ؛ لِمَا تَقَرَّرَ أَنَّهُ لَا يُمْكِنُ تَحَوُّلُهَا عَنْ عَادَتِهَا إِلَّا بِخَرْقِ الْعَادَةِ ... وَمِنْ ثَمَّ قَالَ: { اللَّهُمَّ احْبِسْهَا }، وَيُؤَيِّدُ الِاحْتِمَالَ الثَّانِي مَا جَاءَ فِي رِوَايَةِ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ: { اللَّهُمَّ إِنَّهَا مَأْمُورَةٌ وَإِنِّي مَأْمُورٌ فَاحْبِسْهَا عَلَيَّ حَتَّى تَقْضِيَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ، فَحَبَسَهَا اللهُ عَلَيْهِ }»(٣).

وَقَوْلُهُ: { اللَّهُمَّ احْبِسْهَا عَلَيَّ شَيْئًا }. مَعْنَاهُ: اللَّهُمَّ امْنَعْهَا مِنَ الْمَسِيرِ زَمَانًا حَتَّى يَتَيَسَّرَ لِيَ الْفَتْحُ فَإِنَّهُ لَا تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَلَا النُّورُ، وَتَنْفِيذُ مَا أُمِرَ بِهِ نَهَاراً يَكُونُ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري (٣١٢٤)، ومسلم برقم (١٧٤٧) ، واللفظ له.
٢) رواه أحمد برقم (٨٣١٥) ، وذكره الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٢٠٢) .
٣) فتح الباري (٦ / ٢٢٣).

أَيْسَرَ وَأَهْدَى.

قَالَ عِيَاضٌ: « اخْتُلِفَ فِي حَبْسِ الشَّمْسِ الْمَذْكُورِ هُنَا فَقِيلَ رُدَّتْ عَلَى أَدْرَاجِهَا وَقِيلَ وُقِفَتْ وَلَمْ تُرَدَّ وَقِيلَ أُبْطِئَ بِحَرَكَتِهَا وَكُلُّ ذَلِكَ مِنْ مُعْجِزَاتِ النُّبُوَّةِ قَالَ وَيُقَالُ إِنَّ الَّذِي حُبِسَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يُوشَعُ بْنُ نُونٍ قَالَ الْقَاضِي: وَقَدْ رُوِيَ أَنَّ نَبِيَّنَا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حُبِسَتْ لَهُ الشَّمْسُ مَرَّتَيْنِ إِحْدَاهُمَا يَوْمَ الْخَنْدَقِ حِينَ شُغِلُوا عَنْ صَلَاةِ الْعَصْرِ حَتَّى غَرَبَتْ فَرَدَّهَا اللهُ عَلَيْهِ حَتَّى صَلَّى الْعَصْرَ. ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّحَاوِيُّ وَقَالَ: رُوَاتُهُ ثِقَاتٌ، وَالثَّانِيَةُ صَبِيحَةَ الْإِسْرَاءِ حِينَ انْتَظَرَ الْعِيرَ الَّتِي أَخْبَرَ بِوُصُولِهَا مَعَ شُرُوقِ الشَّمْسِ »(١).

وَعَنْ جَابِرٍ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **{ أَمَرَ الشَّمْسَ فَتَأَخَّرَتْ سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ }**(٢).

قال ابن حجر: « وَعَنْ أَسْمَاءَ بِنْتِ عُمَيْسٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ دَعَا لَمَّا نَامَ عَلَى رُكْبَةِ عَلِيٍّ فَفَاتَتْهُ صَلَاةُ الْعَصْرِ فَرُدَّتِ الشَّمْسُ حَتَّى صَلَّى ثُمَّ غَرُبَتْ. وَهَذَا أَبْلَغُ فِي الْمُعْجِزَةِ وَقَدْ أَخْطَأَ ابْنُ الْجَوْزِيِّ بِإِيرَادِهِ لَهُ فِي الْمَوْضُوعَاتِ. وَكَذَا ابْنُ تَيْمِيَةَ فِي كِتَابِ "الرَّدِّ عَلَى الرَّوَافِضِ" فِي زَعْمِ وَضْعِهِ »(٣).

وَهَذَا مِنَ الْخَوَارِقِ الَّتِي يُؤَيِّدُ بِهَا رُسُلَهُ وَيُثَبِّتُهُمْ وَيَدْعَمُهُمْ وَيَنْصُرُهُمْ، وَقَدِ انْتَصَرَ نَبِيُّ اللهِ يُوشَعُ وَحَقَّقَ اللهُ لَهُ مَا أَرَادَ، وَجُمِعَتِ الْغَنَائِمُ. وَفِي الْحَدِيثِ **{فَجَمَعُوا**

---

١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٥٢).
٢) رواه الطبراني في الأوسط برقم (٥٠٣٩)، وحسَّن الألباني إسناده في السلسلة الصحيحة (١/ ٤٠١).
٣) انظر فتح الباري (٦ / ٢٢٢).

وَأَغْنَمُوا فَأَقْبَلَتِ النَّارُ}، وَفِي رِوَايَةٍ: { وَكَانُوا إِذَا غَنِمُوا غَنِيمَةً بَعَثَ اللهُ عَلَيْهَا النَّارُ فَتَأْكُلُهَا } لَكِنَّهُمْ لَمَّا جَمَعُوا الْغَنِيمَةَ كَانَ مَا أَدْهَشَهُمْ أَنَّهُمُ انْتَظَرُوا أَنْ يُتِمَّ اللهُ عَلَيْهِمُ النَّصْرَ وَيُظْهِرَ لَهُمْ رِضَاهُ فَيَتَقَبَّلَ مِنْهُمْ وَيُرْسِلَ نَارًا تَأْكُلُ مَا غَنِمُوا: { فَجَمَعُوا مَا غَنِمُوا، فَأَقْبَلَتِ النَّارُ لِتَأْكُلَهُ فَأَبَتْ أَنْ تَطْعَمَهُ }.

قَالَ النَّوَوِيُّ: « هَذِهِ كَانَتْ عَادَةَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ فِي الْغَنَائِمِ، أَنْ يَجْمَعُوهَا، فَتَجِيءَ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتَأْكُلَهَا، فَيَكُونَ ذَلِكَ عَلَامَةً لِقَبُولِهَا وَعَدَمِ الْغُلُولِ، فَلَمَّا جَاءَتْ فِي هَذِهِ الْمَرَّةِ فَأَبَتْ أَنْ تَأْكُلَهَا عُلِمَ أَنَّ فِيهِمْ غُلُولًا، فَلَمَّا رَدُّوهُ جَاءَتْ فَأَكَلَتْهَا، وَكَذَلِكَ كَانَ أَمْرُ قُرْبَانِهِمْ إِذَا تُقُبِّلَ جَاءَتْ نَارٌ مِنَ السَّمَاءِ فَأَكَلَتْهُ »(١).

وَقَوْلُهُ: { فِيكُمْ غُلُولٌ } : هُوَ السَّرِقَةُ مِنَ الْغَنِيمَةِ.

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { فَلَمْ تَحِلَّ الْغَنَائِمُ لِأَحَدٍ مِنْ قَبْلِنَا ذَلِكَ أَنَّ اللهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى رَأَى ضَعْفَنَا وَعَجْزَنَا فَطَيَّبَهَا لَنَا }.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: « وَفِيهِ إِشْعَارٌ بِأَنَّ إِظْهَارَ الْعَجْزِ بَيْنَ يَدَيِ الله تَعَالَى يَسْتَوْجِبُ ثُبُوتَ الْفَضْلِ: وَفِيهِ اخْتِصَاصُ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِحِلِّ الْغَنِيمَةِ وَكَانَ ابْتِدَاءُ ذَلِكَ مِنْ غَزْوَةِ بَدْرٍ وَفِيهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَٰلًا طَيِّبًا ﴾ فَأَحَلَّ اللهُ لَهُمُ الْغَنِيمَةَ »(٢).

فَهَذِهِ فَضِيلَةُ الْأُمَّةِ الْخَيْرُ وَالْجِهَادُ؛ لِهَذَا رَحِمَهُمُ اللهُ سُبْحَانَهُ وَأَنْعَمَ عَلَيْهِمْ وَأَبَاحَ

---

١) شرح النووي على مسلم (١٢/ ٥٢).
٢) فتح الباري (٦ / ٢٢٣).

لَهُمْ مَا حُرِّمَ عَلَى غَيْرِهِمْ، وَجَعَلَ الْغَنِيمَةَ حَلَالًا طَيِّبًا لَهُمْ؛ لِأَنَّهُمْ لَمَّا جَاهَدُوا كَانَ أَمَلُهُمْ نُصْرَةَ دِينِ رَبِّهِمْ دُونَ مَطْمَعٍ فِي شَيْءٍ مِنْ حُطَامِ دُنْيَاهُمْ، بَلْ كَانَ أَعْظَمُ رَجَاءٍ لَهُمْ هُوَ رِضَاهُ عَنْهُمْ، أَوْ الْإِنْعَامُ عَلَيْهِمْ بِقَبُولِهِمْ مَعَ شَرَفِ اسْتِشْهَادِهِمْ وَالْجِوارِ الْأَعْظَمِ بَعْدَ نُصْرَةِ دِينِهِمْ، فَأَكْرَمَهُمْ سُبْحَانَهُ بِمَا عَفَّتْ عَنْهُ نُفُوسُهُمْ، وَفِي رِوَايَةٍ: فَقَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عِنْدَ ذَلِكَ: { **إِنَّ اللهَ أَطْعَمَنَا الْغَنَائِمَ رَحْمَةً رَحِمَنَا بِهَا، وَتَخْفِيفًا خَفَّفَهُ عَنَّا لِمَا عَلِمَ مِنْ ضَعْفِنَا** }(١).

فَالْغَنَائِمُ مُكَافَأَةٌ لِلْمُجَاهِدِينَ، وَالْغَنِيمَةُ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ الَّتِي أَشَارَ إِلَيْهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: { **وَتَوَكَّلَ اللهُ لِلْمُجَاهِدِ فِي سَبِيلِهِ، بِأَنْ يَتَوَفَّاهُ أَنْ يُدْخِلَهُ الْجَنَّةَ، أَوْ يَرْجِعَهُ سَالِمًا مَعَ أَجْرٍ أَوْ غَنِيمَةٍ** }(٢).

وَكَانَتِ الْغَنَائِمُ تُقَسَّمُ عَلَى خَمْسَةِ أَقْسَامٍ عَلَى وَفْقِ هَذِهِ الْآيَةِ الْكَرِيمَةِ ﴿ **وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ** ﴾ (الأنفال).

قَالَ عَطَاءٌ: « خُمْسُ الله وَخُمْسُ رَسُولِهِ وَاحِدٌ، كَانَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَحْمِلُ مِنْهُ، وَيُعطِي مِنْهُ، وَيَضَعُهُ حَيْثُ شَاءَ، وَيَصْنَعُ بِهِ مَا شَاءَ »(٣).

وَقَالَ ابن حجر: « وَاتَّفَقُوا عَلَى أَنَّهُ قَبْلَ فَرْضِ الْخُمُسِ كَانَ يُعْطِي الْغَنِيمَةَ

---

١) رواه النسائي في سننه الكبرى برقم (٨٨٢٧)، وابن حبان في صحيحه برقم (٤٨٠٧).
٢) رواه البخاري برقم (٢٧٨٧).
٣) رواه النسائي برقم (٤١٤٢)، وقال الألباني: صحيح الإسناد مرسل، في صحيح وضعيف سنن النسائي.

لِلْغَانِمِينَ بِحَسَبِ مَا يُؤَدِّي إِلَيْهِ اجْتِهَادُهُ فَلَمَّا فُرِضَ الْخُمُسُ تَبَيَّنَ لِلْغَانِمِينَ أَرْبَعَةُ أَخْمَاسِ الْغَنِيمَةِ لَا يُشَارِكُهُمْ فِيهَا أَحَدٌ، وَإِنَّمَا خُصَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِنِسْبَةِ الْخُمُسِ إِلَيْهِ إِشَارَةً إِلَى أَنَّهُ لَيْسَ لِلْغَانِمِينَ فِيهِ حَقٌّ، بَلْ هُوَ مُفَوَّضٌ إِلَى رَأْيِهِ، وَكَذَلِكَ إِلَى الْإِمَامِ بَعْدَهُ ... وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ اللَّامَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (لله) لِلتَّبَرُّكِ، إِلَّا مَا جَاءَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ فَإِنَّهُ قَالَ: تُقْسَمُ الْغَنِيمَةُ خَمْسَةَ أَسْهُمٍ، ثُمَّ السَّهْمُ الْأَوَّلُ يُقْسَمُ قِسْمَيْنِ: قِسْمٌ للهِ وَهُوَ لِلْفُقَرَاءِ، وَقِسْمُ الرَّسُولِ لَهُ، وَأَمَّا مَنْ بَعْدَهُ فَيَضَعُهُ الْإِمَامُ حَيْثُ يَرَاهُ »(١).

١٠- اخْتِصَاصُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَعْلِ الأَرْضِ لَهُ مَسْجِداً وَطَهُوراً :

الْمَاءُ: هُوَ الْأَصْلُ فِي التَّطَهُّرِ لِلصَّلَاةِ وَالْعِبَادَةِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿ **وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ** ﴿١١﴾ ﴾ (الأنفال). لَكِنَّ الْإِنْسَانَ قَدْ لَا يَجِدُ الْمَاءَ، وَإِنْ وَجَدَهُ فَقَدْ يَعْجَزُ عَنِ اسْتِعْمَالِهِ أَحْيَانًا لِمَرَضٍ أَوْ عُذْرٍ، فَكَانَ مِنْ رَحْمَتِهِ سُبْحَانَهُ أَنْ جَعَلَ الْأَرْضَ طَهُوراً عِنْدَ الْعُذْرِ أَوْ فَقْدِ الْمَاءِ، نَتَيَمَّمُ بِهَا وَنُصَلِّي عَلَيْهَا، وَهَذَا تَيْسِيرٌ كَيْ لَا يَنْقَطِعَ الْعِبَادُ عَنِ الطَّاعَةِ، وَلِيَقُومُوا بِمَا فُرِضَ عَلَيْهِمْ دُونَ مَشَقَّةٍ أَوْ عَنَاءٍ.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ وَجُعِلَتْ لِيَ الْأَرْضُ طَيِّبَةً طَهُورًا وَمَسْجِدًا، فَأَيُّمَا رَجُلٍ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ صَلَّى حَيْثُ كَانَ }**(٢). أَيْ: طَاهِرَةً - **{طَهُوراً}** أَيْ: مُطَهِّراً لِغَيْرِهِ.

---

١) فتح الباري (٦/ ٢١٨).

٢) رواه مسلم برقم (٥٢١).

وَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **وَمَسْجِداً** } أَيْ: مَوْضِعَ سُجُودٍ، وَهُوَ وَضْعُ الْجَبْهَةِ عَلَى الْأَرْضِ لَا يَخْتَصُّ السُّجُودُ مِنْهَا بِمَوْضِعٍ دُونَ غَيْرِهِ، أَوْ هُوَ مَجَازٌ عَنِ الْمَكَانِ الْمَبْنِيِّ لِلصَّلَاةِ.

* **مَعْنَى الْخُصُوصِيَّةِ هُنَا** : وَاخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي مَعْنَى اخْتِصَاصِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَعْلِ الْأَرْضِ لَهُ مَسْجِداً وَطَهُوراً عَلَى أَقْوَالٍ :

الْأَوَّلُ: ذَكَرَهُ الْخَطَّابِيُّ وَهُوَ أَنَّ مَنْ قَبْلَهُ إِنَّمَا أُبِيحَتْ لَهُمُ الصَّلَوَاتُ فِي أَمَاكِنَ مَخْصُوصَةٍ كَالْبِيَعِ وَالصَّوَامِعِ، وَاسْتُدِلَّ لَهُ بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :{ **وَكَانَ مَنْ قَبْلِي إِنَّمَا يُصَلُّونَ فِي كَنَائِسِهِمْ** }. وَحَدِيثِ ابْنِ عَبَّاسٍ: { **وَلَمْ يَكُنْ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ أَحَدٌ يُصَلِّي حَتَّى يَبْلُغَ مِحْرَابَهَ** }. وَهَذَا دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى ثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّهُ لَا يُشَارِكُهُ فِيهَا أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ السَّابِقِينَ وَأَنَّ صَلَاتَهُمْ لَا تَكُونُ إِلَّا فِي الْبِيَعِ وَالْكَنَائِسِ(١).

الثَّانِي: أَنَّهُمْ كَانُوا لَا يُصَلُّونَ إِلَّا فِيمَا تَيَقَّنُوا طَهَارَتَهُ مِنَ الْأَرْضِ وَخُصِّصَتْ هَذِهِ الْأُمَّةِ بِجَوَازِ الصَّلَاةِ فِي جَمِيعِ الْأَرْضِ إِلَّا مَا تَيَقَّنَتْ نَجَاسَتَهُ. حَكَاهُ الْقَاضِي عِيَاضٌ.

الثَّالِثُ: قَالَهُ التَّيْمِيُّ: أَنَّ الْمُرَادَ جُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِداً وَطَهُوراً، وَجُعِلَتْ لِغَيْرِي مَسْجِداً وَلَمْ تُجْعَلْ لَهُ طَهُوراً؛ لِأَنَّ عِيسَى كَانَ يَسِيحُ فِي الْأَرْضِ وَيُصَلِّي حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ. كَذَا قَالَ، وَسَبَقَهُ إِلَى ذَلِكَ الدَّاوُدِيُّ(٢).

---

١) فتح الباري (١/ ٤٣٧ - ٤٣٨).
٢) فتح الباري (١/ ٤٣٧).

وَالرَّاجِحُ مِنْ ذَلِكَ هُوَ الْقَوْلُ الْأَوَّلُ لِثُبُوتِ الْخُصُوصِيَّةِ بِهِ، وَأَنَّهُ لَمْ يُشَارِكْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَدٌ فِي جَعْلِ الْأَرْضِ لَهُ طَيِّبَةً وَمَسْجِداً وَطَهُوراً حَيْثُمَا أَدْرَكَتْهُ الصَّلَاةُ، فَعِنْدَهُ طَهُورُهُ وَمَسْجِدُهُ.

وَهَلْ جَعْلُ الْأَرْضُ هُنَا مَسْجِداً وَطَهُوراً عَلَى إِطْلَاقِهِ ؟

والجوابُ أنَّ بَعْضَ الْأَحَادِيثِ جَاءَتْ مُقَيِّدَةً لِذَلِكَ، كَمَا فِي قَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **{ الْأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجُدٌ إِلَّا الْمَقْبَرَةَ وَالْحَمَّامَ }**(١).

وعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « **نَهَى رَسُولُ الله** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **أَنْ يُصَلَّى فِي سَبْعِ مَوَاطِنَ: فِي الْمَزْبَلَةِ، وَالْمَجْزَرَةِ، وَالْمَقْبَرَةِ، وَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ، وَالْحَمَّامِ، وَمَعَاطِنِ الْإِبِلِ، وَفَوْقَ الْكَعْبَةِ** »(٢).

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « **إِنَّ حَبِيبِي** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **نَهَانِي أَنْ أُصَلِّيَ فِي الْمَقْبَرَةِ** »(٣)

وَعَنِ الْبَرَاءِ بْنِ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سُئِلَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الصَّلَاةِ فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ، فَقَالَ: **{ لَا تُصَلُّوا فِي مَبَارِكِ الْإِبِلِ فَإِنَّهَا مِنَ الشَّيَاطِينِ }**(٤).

قَالَ الْعِرَاقِيُّ: « وَبَعْضُ هَذِهِ الْأَمَاكِنِ الْمَنْهِيِّ عَنِ الصَّلَاةِ فِيهَا سَبَبُ النَّهْيِ غَلَبَةُ

---

١) رواه أحمد برقم (١١٧٨٨)، وابن ماجه برقم (٧٤٥)، وأبو داود برقم (٤٩٢)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٥٠٧) .

٢) رواه الترمذي برقم (٣٤٦)، وابن ماجه برقم (٧٤٦)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترمذي برقم (٧٣٨) .

٣) رواه أبو داود برقم (٤٩٠) ، وضعَّفه الألباني في ضعيف أبي داود برقم (٧٦) .

٤) رواه أبو داود برقم (٤٩٣)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود برقم (١٧٨).

النَّجَاسَةِ، كَالْمَزْبَلَةِ وَالْمَجْزَرَةِ وَالْمَقْبَرَةِ وَالْحَمَّامِ وَمَعَاطِنِ الْإِبِلِ عَلَى أحد الْأَقْوَالِ، أَوْ خَوْفُ التَّشْوِيشِ وَتَرْكُ اجْتِمَاعِ الْخَاطِرِ، كَقَارِعَةِ الطَّرِيقِ وَأَعْطَانِ الْإِبِلِ عَلَى قَوْلٍ آخَرَ، أَوْ حُضُورُ الشَّيَاطِينِ كَالْحَمَّامِ وَأَعْطَانِ الْإِبِلِ عَلَى قَوْلٍ، وَكَذَا الصَّلَاةُ فِي بَطْنِ الْوَادِي، كَمَا جَاءَ فِي حَدِيثٍ آخَرَ، وَعَدَمُ الْقِبْلَةِ الْمُسْتَقْبَلَةِ كَظَهْرِ بَيْتِ الله حَيْثُ لَا شَاخِصَ هُنَاكَ ثَابِتًا يُسْتَقْبَلُ، وَبَعْضُهَا مَحْمُولٌ عَلَى التَّحْرِيمِ، وَبَعْضُهَا عَلَى الْكَرَاهَةِ عَلَى مَا هُوَ مَعْرُوفٌ فِي مَوَاضِعِه مِنَ الْفِقْهِ »[1].

١١- اخْتِصَاصُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالنَّصْرِ بالرُّعْبِ:

وَالرُّعْبُ: الْخَوْفُ وَالْفَزَعُ. وَمَعْنَاهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ إِذَا تَوَجَّهَ إِلَى جِهَةٍ مِنَ الْأَرْضِ أَلْقَى اللهُ الرُّعْبَ عَلَى مَنْ أَمَامَهُ وَبَيْنَهُ وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ تَخْذِيلًا لَهُمْ.

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ **سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُوا۟ بِٱللَّهِ** ﴾ (آل عمران: ١٥١).

وَهَذِهِ خُصُوصِيَّةٌ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انْفَرَدَ بِهَا دُونَ مَنْ سَبَقَ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَات الله وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، فَيَقْذِفُ اللهُ تَعَالَى فِي قُلُوبِ أَعْدَائِهِ مِنَ الْخَوْفِ وَالْهَلَعِ مَا يُزَلْزِلُ أَقْدَامَهُمْ وَيَفُتُّ فِيهِمْ.

قَالَ السِّنْدِيُّ: « بِلَا أَسْبَابٍ ظَاهِرِيَّةٍ وَآلَاتٍ عَادِيَّةٍ لَهُ، بَلْ بِضِدِّهَا، فَإِنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيراً مَا يَرْبِطُ الْحَجَرَ بِبَطْنِهِ مِنَ الْجُوعِ وَلَا يُوقِدُ النَّارَ فِي بُيُوتِهِ، وَمَعَ

---

١) طرح التثريب في شرح التقريب للحافظ زين الدين العراقي (٢/ ١٠٦).

هَذِهِ الْحَالِ كَانَ الْكَفَرَةُ مَعَ مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْمَتَاعِ وَالْآلَاتِ وَالْأَسْبَابِ فِي خَوْفٍ شَدِيدٍ مِنْ بَأْسِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[١].

فَأَخْبَرَ عَنْ ذَلِكَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شُكْراً لله تَعَالَى وَتَحَدُّثا بِنِعْمَتِهِ وَبَيَانًا لِمَكَانَتِهِ. فَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: **{ وَنُصِرْتُ عَلَى الْعَدُوِّ بِالرُّعْبِ وَلَوْ كَانَ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ مَسِيرَةُ شَهْرٍ}**[٢]. وَذَلِكَ مِنْ جَمِيعِ نَوَاحِي الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ، وَالِاقْتِصَارُ عَلَى شَهْرٍ؛ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ بَيْنَ الْمَدِينَةِ الْمُنَوَّرَةِ وَبَيْنَ الْمَمَالِكِ الْمُجَاوِرَةِ الْكِبَارِ وَالَّتِي حَوْلَهُ فَوْقَ ذَلِكَ. فَالْمُتَوَجِّهُ إِلَى الشَّامِ وَالْعِرَاقِ أَوِ الْيَمَنِ وَمِصْرَ لَا يَحْتَاجُ فِي سَفَرِهِ إِلَى أَكْثَرَ مِنْ شَهْرٍ غَالِباً.

قَالَ ابْنُ حَجَرٍ: « لَيْسَ الْمُرَادُ بِالْخُصُوصِيَّةِ مُجَرَّدَ حُصُولِ الرُّعْبِ بَلْ هُوَ وَمَا يَنْشَأُ عَنْهُ مِنَ الظَّفَرِ بِالْعَدُوِّ »[٣].

* **شجاعته** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

وَمَعَ أَنَّ هَذِهِ خَاصِّيَّةٌ لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِأَنْ يَنْصُرَهُ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ وَلَوْ كَانَ وَحْدَهُ بِغَيْرِ جَيْشٍ وَلَا مُعِدَّاتِ قِتَالٍ، فَقَدْ كَانَتْ شَجَاعَتُهُ لَا حَدَّ لَهَا وَلَا نَظِيرَ .

فَعَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « كَانَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحْسَنَ النَّاسِ، وَأَشْجَعَ النَّاسِ، وَلَقَدْ فَزِعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ لَيْلَةً، فَخَرَجُوا نَحْوَ الصَّوْتِ، فَاسْتَقْبَلَهُمُ النَّبِيُّ

---

١) شرح السِّندي على سنن النسائي (١/ ٢١٠).
٢) رواه أحمد برقم (٧٠٦٨) ، وحسنه الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٣٦٣٤) .
٣) فتح الباري (٦/ ١٢٨) .

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَقَدْ اسْتَبْرَأَ الخَبَرَ، وَهُوَ عَلَى فَرَسٍ لِأَبِي طَلْحَةَ عُرْيٍ، وَفِي عُنُقِهِ السَّيْفُ، وَهُوَ يَقُولُ: { لَمْ تُرَاعُوا، لَمْ تُرَاعُوا }.. »(١).

وَسُئِلَ الْبَرَاءُ بْنُ عَازِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَكُنْتُمْ وَلَّيْتُمْ يَوْمَ حُنَيْنٍ يَا أَبَا عُمَارَةَ؟ فَقَالَ: أَشْهَدُ عَلَى نَبِيِّ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَا وَلَّى، وَلَكِنَّهُ انْطَلَقَ أَخِفَّاءُ مِنَ النَّاسِ، وَحُسَّرٌ إِلَى هَذَا الْحَيِّ مِنْ هَوَازِنَ، وَهُمْ قَوْمٌ رُمَاةٌ، فَرَمَوْهُمْ بِرِشْقٍ مِنْ نَبْلٍ كَأَنَّهَا رِجْلٌ مِنْ جَرَادٍ، فَانْكَشَفُوا، فَأَقْبَلَ الْقَوْمُ إِلَى رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَبُو سُفْيَانَ بْنُ الْحَارِثِ يَقُودُ بِهِ بَغْلَتَهُ، فَنَزَلَ وَدَعَا وَاسْتَنْصَرَ، وَهُوَ يَقُولُ: { أَنَا النَّبِيُّ لَا كَذِبْ، أَنَا ابْنُ عَبْدِ الْمُطَّلِبْ، اللهُمَّ نَزِّلْ نَصْرَكَ }، قَالَ الْبَرَاءُ: « كُنَّا وَاللهِ إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ نَتَّقِي بِهِ، وَإِنَّ الشُّجَاعَ مِنَّا لَلَّذِي يُحَاذِي بِهِ، يَعْنِي النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »(٢).

- وَمَعْنَى « إِذَا احْمَرَّ الْبَأْسُ »: أَيْ: اشْتَدَّ الْحَرْبُ. وَمَعْنَى « نَتَّقِي بِهِ »: أَيْ: نَجْعَلُهُ وِاقِيَةً لَنَا مِنَ الْعَدُوِّ.

وَإِلْقَاءُ الرُّعْبِ فِي قُلُوبِ الْأَعْدَاءِ وَهُمْ عَلَى مَسِيرَةِ شَهْرٍ مِنَ الْمُمْكِنِ أَنْ يَتَحَقَّقَ لِلْمُسْلِمِينَ الْمُجَاهِدِينَ بَعْدَ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا وَفَّوْا بِعَهْدِ اللهِ تَعَالَى وَعَهْدِ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، امْتِدَادًا لِهَذِهِ الْخُصُوصِيَّةِ الْعَظِيمَةِ، وَمِصْدَاقاً لِقَوْلِ اللهِ تَعَالَى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾ ﴾ (غافر). وقوله تعالى: ﴿ وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾

---

١) رواه البخاري برقم (٢٩٠٨).
٢) رواه مسلم برقم (١٧٧٦).

﴿وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿١٧٣﴾﴾ (الصافات)، وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَالرُّعْبُ يَسِيرُ بَيْنَ يَدَيْ أُمَّتِي شَهْراً }(١).

وَلَا يَخْرُجُ ذَلِكَ عَنْ كَوْنِهِ خُصُوصِيَّةً لِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِيَ خُصُوصِيَّةٌ لَهُ وَلِأُمَّتِهِ إِنِ اسْتَقَامَتْ عَلَى نَهْجِهِ، وَاسْتَظَلَّتْ بِكِتَابِ الله تَعَالَى، وَنَفَّذَتْ أَوَامِرَهُ، وَاحْتَكَمَتْ إِلَيْهِ فِي كُلِّ أُمُورِهَا.

١٢- مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ:

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾ (الأحزاب: ٤٠).

فَمِنْ رَحْمَةِ الله تَعَالَى بِالْعِبَادِ أَنْ خَتَمَ النُّبُوَّةَ بِسَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَذَلِكَ أَنَّ شَرِيعَتَهُ جَاءَتْ بِالْيُسْرِ بَعْدَ الْعُسْرِ فَرَفَعَتِ الْحَرَجَ عَنِ الْعِبَادِ، وَوَضَعَ اللهُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ.

وَقَوْلُهُ تَعَالَى فِي الْآيَةِ: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾: بِمَعْنَى أَنَّهُمْ خُتِمُوا بِهِ فَهُوَ كَالْخَاتَمِ لهم. وَقَرَأَ الْجُمْهُورُ بِكَسْرِ التَّاءِ بِمَعْنَى أَنَّهُ خَتَمَهُمْ أَيْ جَاءَ آخِرَهُمْ. وَقِيلَ: الْخَاتَمُ وَالْخَاتِمُ لُغَتَانِ.

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { إِنَّ مَثَلِي وَمَثَلَ

---

١) رواه أحمد برقم (٢٣٣٣٦)، بإسناد ضعيف.

الْأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَي بَيْتًا فَأَحْسَنَهُ وَأَجْمَلَهُ إِلَّا مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ، فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلَّا وُضِعَتْ هَذِهِ اللَّبِنَةُ. قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ }(١).

لَقَدْ جَاءَ رُسُلُ الله لِتَبْلِيغِ رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ إِلَى خَلْقِهِ فَأَقَامُوا بِنَاءَ الدِّينِ كَمَا بَلَّغَهُمْ رَبُّنَا وَأَوْحَى إِلَيْهِمْ وَأَخْلَصُوا فِي هِدَايَةِ النَّاسِ كُلَّ الْإِخْلَاصِ، لَكِنَّ هَذَا الْبِنَاءَ الْعَظِيمَ كَانَ جَمَالُهُ وَحُسْنُهُ رَهْنًا بِبَعْثَةِ هَذَا النَّبِيِّ الْخَاتَمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ؛وَلِذَلِكَ فَإِنَّ كُلَّ مَنْ رَأَى هَذَا الْبِنَاءَ لَمَسَ فِيهِ ذَلِكَ وَأَنَّهُ لَابُدَّ لِكَيْ يَبْلُغَ ذِرْوَةَ الْكَمَالِ وَقِمَّةَ الْحُسْنِ مِنْ وَضْعِ اللَّبِنَةِ الْأَخِيرَةِ فِي هَذَا الْبِنَاءِ.

وَقَدْ جَاءَتْ نُصُوصٌ كَثِيرَةٌ مُؤَكِّدَةٌ لِهَذَا الشَّرَفِ الْعَظِيمِ :

عَنِ الْعِرْبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنِّي عِنْدَ الله لَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ وَإِنَّ آدَمَ لَمُنْجَدِلٌ فِي طِينَتِهِ ..}(٢).

أَيْ: مَطْرُوحٌ عَلَى وَجْهِ الْأَرْضِ صُورَةً مِنْ طِينٍ لَمْ يَجْرِ فِيهِ الرُّوحُ بَعْدُ.

عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:{ إِنَّ الرِّسَالَةَ وَالنُّبُوَّةَ قَدِ انْقَطَعَتْ فَلَا رَسُولَ بَعْدِي وَلَا نَبِيَّ } قَالَ: فَشَقَّ ذَلِكَ عَلَى النَّاسِ. قَالَ: { وَلَكِنِ الْمُبَشِّرَاتِ }. قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَمَا الْمُبَشِّرَاتُ؟ قَالَ: { رُؤْيَا الرَّجُلِ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣٥٣٥)، ومسلم برقم (٢٢٨٦) .

٢) رواه أحمد برقم (١٧١٦٣)، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٤٠٤)، وصححه الألباني في مشكاة المصابيح برقم (٥٧٥٩).

الْمُسْلِمِ ، وَهِيَ جُزْءٌ مِنْ أَجْزَاءِ النُّبُوَّةِ }(١).

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ ٱللَّهُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ : « فَهَذِهِ الْآيَةُ نَصٌّ فِي أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، وَإِذَا كَانَ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ فَلَا رَسُولَ بعدَه بالطَّرِيقِ الْأَوْلَى وَالْأَحْرَى، لِأَنَّ مَقَامَ الرِّسَالَةِ أَخَصُّ مِنْ مَقَامِ النُّبُوَّةِ، فَإِنَّ كُلَّ رَسُولٍ نَبِيٌّ وَلَا يَنْعَكِسُ »(٢).

ثُمَّ قَالَ: « وَقَدْ أَخْبَرَ الْمَوْلَى سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي كِتَابِهِ وَرَسُولُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي السُّنَّةِ الْمُتَوَاتِرَةِ عَنْهُ أَنَّهُ لَا نَبِيَّ بَعْدَهُ، لِيُعْلَمُوا أَنَّ كُلَّ مَنِ ادَّعَى هَذَا الْمَقَامَ بَعْدَهُ فَهُوَ كَذَّابٌ أَفَّاكٌ دَجَّالٌ ضَالٌّ مُضِلٌّ، وَلَوْ تَخَرَّقَ وَشَعْبَذَ وَأَتَى بِأَنْوَاعِ السِّحْرِ وَالطَّلَاسِمِ وَالنَّيْرِجِيَّاتِ فَكُلُّهَا مِحَالٌ وَضَلَالٌ عِنْدَ أُولِي الْأَلْبَابِ »(٣).

١٣- اخْتِصَاصُهُ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ :

وَجَوَامِعُ الْكَلِمِ: أَنْ يَقُولَ صَلَّى ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَلِمَاتٍ يَسِيرَةً تَشْتَمِلُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ. فَقَدْ يَخْطُبُ إِنْسَانٌ خُطْبَةً طَوِيلَةً لَوْ أَحْصَيْنَا مَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي لَوَجَدْنَاهَا قَلِيلَةً، وَقَدْ يُلْقِي إِنْسَانٌ كَلِمَةً قَصِيرَةً لَكِنَّهَا تَحْتَوِي عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ.

عَنْ الْعَبَّاسِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ رَضِيَ ٱللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ الله عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ الله عَزَّ وَجَلَّ، قَالَ: { سَلِ اللهَ العَافِيَةَ }، فَمَكَثْتُ أَيَّامًا ثُمَّ جِئْتُ فَقُلْتُ: يَا

---

١) مسند أحمد جـ ٣ ص ٢٦٧ .
٢) تفسير ابن كثير (٦/ ٣٨١).
٣) المصدر السابق (٦/ ٣٨٤).

رَسُولَ الله عَلِّمْنِي شَيْئًا أَسْأَلُهُ اللهَ، فَقَالَ لِي: { يَا عَبَّاسُ يَا عَمَّ رَسُولِ الله، سَلِ اللهَ، العَافِيَةَ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ }(١).

فَانْظُرْ إِلَى هَذِهِ الدَّعْوَةِ الْمُوجَزَةِ وَمَا تَشْتَمِلُ عَلَيْهِ مِنْ فَوَائِدَ، فَأَيُّ شَيْءٍ أَطْيَبُ لِلْإِنْسَانِ مِنْ سَلَامَتِهِ مِنْ جَمِيعِ الْآفَاتِ الظَّاهِرَةِ وَالْبَاطِنَةِ فِي دَارِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ ؟

وَاخْتُلِفَ فِي الْمُرَادِ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ عَلَى أَقْوَالٍ :

الْأَوَّلُ: أَنَّ الْمُرَادَ بِهَا الْقُرْآنُ الْكَرِيمُ. قَالَهُ الْهَرَوِيُّ.

الثَّانِي: الْمُرَادُ بِهَا: كَلَامُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَكَانَ وَاضِحاً ظَاهِرًا.

الثَّالِثُ: الْمُرَادُ بِهَا: الْقَوَاعِدُ الْكُلِّيَّةُ الْجَامِعَةُ لِلْفُرُوعِ الْجُزْئِيَّةِ.

- وَكَانَ لِكَلَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَلَاوَةٌ، يَفْهَمُهُ الصَّغِيرُ وَالْكَبِيرُ، وَلَا يَمَلُّهُ سَامِعُهُ وَلَا يَحْتَاجُ مِنْهُ إِلَى إِيضَاحٍ بَعْدَمَا يَقُولُ؛ فَكَانَ مُخْتَصراً بِلَا خَلَلٍ وَفَصِيحًا بِلَا تَطْوِيلٍ.

قال الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: سَأَلْتُ خَالِي هندَ بْنَ أَبِي هالَةَ : صِفْ لِي مَنْطِقَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَقَالَ: « **كَانَ ... طَوِيلَ السَّكْتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِاسْمِ الله تَعَالَى، وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، كَلَامُهُ فَصْلٌ، لَا فُضُولَ فِيهِ وَلَا تَقْصِيرَ .. »**(٢).

---

١) رواه أحمد برقم (١٧٨٣)، والترمذي برقم (٣٥١٤)، وقال: حديث صحيح .
٢) الشمائل المحمدية للترمذي رقم (٢٢٦) ، وانظر شرح السنة للبغوي رقم (٢١٥).

قَوْلُهُ: « طَوِيلَ السَّكْتِ »: لِيُفَكِّرَ فِي الْأُمُورِ الْعِظَامِ الْمُسْنَدَةِ إِلَيْهِ، فَهُوَ لِهَذَا طَوِيلُ السَّكْتِ لَا يَتَكَلَّمُ فِي غَيْرِ حَاجَةٍ، وَلَا يَتَكَلَّمُ إِلَّا فِيمَا يَعُودُ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ عَلَى جَلِيسِهِ بِالْفَائِدَةِ، وَهَذَا شَأْنُ الْفُضَلَاءِ الْعُقَلَاءِ بِلَا رَيْبٍ.

وَقَوْلُهُ: « يَفْتَتِحُ الْكَلَامَ وَيَخْتِمُهُ بِاسْمِ اللهِ تَعَالَى » أَيْ: يَبْدَأُ وَيَخْتِمُ كَلَامَهُ بِذِكْرِ اسْمِ اللهِ تَعَالَى تَبَرُّكًا وَتَيَمُّنًا.

قَالَ الْبَاجُورِيُّ: وَالْمُرَادُ بِاسْمِ اللهِ بِالنِّسْبَةِ لِلافْتِتَاحِ الْبَسْمَلَةُ، وَبِالنِّسْبَةِ لِلاخْتِتَامِ الْحَمْدُ لَهُ، عَلَى وَفْقِ قَوْلِهِ سُبْحَانَهُ: ﴿وَءَاخِرُ دَعْوَىٰهُمْ أَنِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٠﴾﴾، وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ فِي الاخْتِتَامِ الْبَسْمَلَةَ أَيْضًا ؛لِأَنَّهُ لَمْ يُشْتَهَرْ اخْتِتَامُ الْأُمُورِ بِالْبَسْمَلَةِ، فَيُسَنُّ لِكُلِّ مُتَكَلِّمٍ افْتِتَاحُ كَلَامِهِ بِالْبَسْمَلَةِ وَاخْتِتَامُهُ بِالْحَمْدِ لَهُ اقْتِدَاءً بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

قَوْلُهُ: « وَيَتَكَلَّمُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ » أَيْ: يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ قَلِيلٍ يَشْمَلُ مَعَانِيَ كَثِيرَةٍ.

وَقَوْلُهُ: «كَلَامُهُ فَصْلٌ» أَيْ: فَاصِلٌ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ فَيَكُونُ بِمَعْنَى اسْمِ الْفَاعِلِ، أَوْ أَنَّهُ مَفْصُولٌ مِنَ الْبَاطِلِ، أَوْ مَصُونٌ عَنْهُ فَلَا يَنْطِقُ إِلَّا بِالْحَقِّ، أَوْ مَفْصُولٌ بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ، أَوْ أَنَّهُ وَسَطٌ بَيْنَ الْإِفْرَاطِ وَالتَّفْرِيطِ، فَيَكُونُ قَوْلُهُ: « لَا فُضُولَ وَلَا تَقْصِيرَ » كَالْبَيَانِ وَالتَّفْسِيرِ لَهُ، وَالْمَعْنَى: أَنَّ كَلَامَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَطٌ لَا زِيَادَةَ فِيهِ وَلَا نُقْصَانَ (١).

---

١) الشمائل بحاشية الباجوري، ص (١١٥، ١١٦).

وَقَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « **إِنَّ رَسُولَ اللهِ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ **لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ الحَدِيثَ كَسَرْدِكُمْ** »(١)، وعنها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « **أَنَّ النَّبِيَّ** صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، **كَانَ يُحَدِّثُ حَدِيثًا لَوْ عَدَّهُ العَادُّ لَأَحْصَاهُ** »(٢).

وَلْتَتَدَبَّرْ قَوْلَ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا « أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَمْ يَكُنْ يَسْرُدُ كَسَرْدِكُمْ » أَيْ لَمْ يَكُنْ كَلَامُهُ لِجَلِيسِهِ مُتَّصِلاً بِلَا انْقِطَاعٍ بِحَيْثُ يَمَلُّهُ جَلِيسُهُ وَلَا يَفْهَمُ عَنْهُ شَيْئًا وَيَلْتَبِسُ عَلَيْهِ الْأَمْرُ وَيَحْتَاجُ إِلَى إِعَادَةٍ بَلْ كَانَ يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَيِّنٍ ظَاهِرٍ.

وَمَا أَجْمَلَ وَصْفَ أُمِّ مَعْبَدٍ عِنْدَمَا مَرَّ عَلَيْهَا رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهِيَ فِي خَيْمَتِهَا قَالَتْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: « **رَأَيْتُ رَجُلًا ظَاهِرَ الْوَضَاءَةِ، أَبْلَجَ الْوَجْهِ** » ... إِلَى قَوْلِهَا: « **إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ، وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ، أَجْمَلُ النَّاسِ وَأَبْهَاهُ مِنْ بَعِيدٍ وَأَجْلَاهُ وَأَحْسَنُهُ مِنْ قَرِيبٍ ،حُلْوُ الْمَنْطِقِ، فَصْلٌ لَا نَزْرَ، وَلَا هَذَرَ، كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ ..** »(٣).

و« أَبْلَجَ الْوَجْهِ » أَيْ: أَنَّهُ مُشْرِقُ الْوَجْهِ. وَ« إِنْ صَمَتَ فَعَلَيْهِ الْوَقَارُ » بِفَتْحِ الْوَاوِ أَيْ: الْحِلْمُ وَالرَّزَانَةُ، وَالتَّوْقِيرُ: التَّعْظِيمُ وَالتَّقْدِيرُ، « وَإِنْ تَكَلَّمَ سَمَا » أَيْ: عَلَا بِرَأْسِهِ وَارْتَفَعَ، وَهَذَا يَجْعَلُ الْمُسْتَمِعَ مُنْتَبِهًا وَفَاهِمًا لِمَا يَقُولُ. و« وَعَلَاهُ الْبَهَاءُ » أَيِ: الْحُسْنُ، « حُلْوُ الْمَنْطِقِ ». أَيْ: بَلِيغُ الْكَلَامِ حَسَنُ الْعِبَارَةِ، « فَصْلٌ» وَاضِحٌ،

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣٥٨٦)، ومسلم برقم (٢٤٩٣).

٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣٥٦٧)، ومسلم برقم (٢٤٩٣).

٣) رواه الطبراني في المعجم الكبير برقم (٣٦٠٥)، والحاكم برقم (٤٢٧٤)، وقال: صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وهو صحيح، وانظر شرح السنة للبغوي برقم (٣٧٠٤).

« لَا نَزْرَ وَلَا هَذْرَ » أَيْ: وَسَطٌ فَلَا هُوَ قَلِيلُ الْكَلَامِ وَلَا كَثِيرُهُ، فَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَدْلًا حَتَّى فِي مَنْطِقِهِ، فَيُعْطِي جَلِيسَهُ مِنَ الْكَلَامِ مَا يُنَاسِبُهُ لَا يَضِنُّ عَلَيْهِ بِبَيَانٍ وَلَا يُسْئِمُهُ بِكَثْرَةِ كَلَامٍ، وَلَا يَتْرُكُهُ مُحْتَاجًا إِلَى إِيضَاحٍ.

وَقَوْلُهَا: « كَأَنَّ مَنْطِقَهُ خَرَزَاتُ نَظْمٍ يَتَحَدَّرْنَ ». هَذَا مَزِيدٌ فِي وَصْفِ مَنْطِقِهِ وَكَلَامِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالْحُسْنِ وَالسَّلَاسَةِ، وَجَوْدَةِ الْعِبَارَةِ وَقُوَّةِ الْأَدَاءِ، كَأَنَّ حَدِيثَهُ خَرَزَاتٌ أَوْ حَبَّاتُ لُؤْلُؤٍ تَنْحَدِرُ فِي الْخَيْطِ حَبَّةً حَبَّةً فِي جَمَالِ مَنْظَرٍ، وَسُهُولَةِ حَرَكَةٍ، وَحُسْنِ اتِّسَاقٍ وَتَرْتِيبٍ .

١٤- خَزَائِنُ الأَرْضِ بَيْنَ يَدَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :

لَقَدْ بُعِثَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِدَعْوَتِهِ السَّمِحَةِ إِلَى مُجْتَمَعٍ فِيهِ الْغَنِيُّ وَالْفَقِيرُ، وَكَانَ أَغْلَبُ أَتْبَاعِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْفُقَرَاءِ الَّذِينَ هَانَتْ عَلَيْهِمُ الدُّنْيَا فِي سَبِيلِ اللهِ سُبْحَانَهُ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا لِيَضِيعَ عِنْدَ اللهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى؛ فَقَدْ بَشَّرَهُمُ النَّبِيُّ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ أَنَّ هَذِهِ الشِّدَّةَ وَالْمُعَانَاةَ سَيَحِلُّ مَحَلَّهَا الْيُسْرُ وَالْفَرَجُ، وَأَنَّ هَذَا الْفَقْرَ الَّذِي تَرَتَّبَ عَلَى تَضْحِيَاتِهِمْ وَجِهَادِهِمْ وَبَذْلِهِمْ لِلْمَالِ فِي سَبِيلِ نُصْرَةِ الدَّعْوَةِ سَيَحِلُّ مَحَلَّهُ الْغِنَى الْوَاسِعُ حَتَّى يَفِيضَ الْمَالُ، وَتُفْتَحُ عَلَيْهِ خَزَائِنُ الْأَرْضِ، وَقَدْ صَدَقَتْ نُبُوءَةُ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

لَقَدْ كَانَ مِمَّا بَشَّرَهُمْ بِهِ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّ اللهَ سَيَفْتَحُ عَلَيْهِمْ كُنُوزَ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، وَقَدْ وَقَعَ هَذَا فِعْلًا، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِسُرَاقَةَ بْنِ مَالِكٍ: **{ كَيْفَ بِكَ إِذَا لَبِسْتَ سِوَارَيْ كِسْرَى؟}**، قَالَ : فَلَمَّا أُتِيَ عُمَرُ بِسِوَارَيْ كِسْرَى وَمِنْطَقَتِهِ وَتَاجِهِ دَعَا سُرَاقَةَ فَأَلْبَسَهُ إِيَّاهَا، وَكَانَ رَجُلًا أَزَبَّ كَثِيرَ شَعْرِ السَّاعِدَيْنِ، فَقَالَ لَهُ: ارْفَعْ يَدَيْكَ

وَقُلِ: «الْحَمْدُ لله الَّذِي سَلَبَهُمَا كِسْرَى بْنَ هُرْمُزٍ، وَأَلْبَسَهُمَا سُرَاقَةَ الْأَعْرَابِيَّ »(١).

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ بُعِثْتُ بِجَوَامِعِ الْكَلِمِ، وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَبَيْنَا أَنَا نَائِمٌ أُتِيتُ بِمَفَاتِيحِ خَزَائِنِ الْأَرْضِ فَوُضِعَتْ فِي يَدَيَّ }**. قَالَ أَبُو هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: « فَذَهَبَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا »(٢).

الْمَفَاتِيحُ: جَمْعُ مِفْتَاحٍ، وَهُوَ اسْمٌ لِكُلِّ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى اسْتِخْرَاجِ الْمُغْلَقَاتِ، وَمَا فَتَحَ اللهُ تَعَالَى بِهِ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ خَزَائِنِ كِسْرَى وَقَيْصَرَ، **{فَوُضِعَتْ}** أَيْ، الْمَفَاتِيحُ **{فِي يَدِي}** بِالْإِفْرَادِ، وَقِيلَ **{يَدَيَّ}** بِفَتْحِ الدَّالِ وَالْيَاءِ الْمُشَدَّدَةِ عَلَى أَنَّهُ مُثْنَى.

وَقَوْلُهُ: « وَأَنْتُمْ تَنْتَثِلُونَهَا » يَعْنِي تَسْتَخْرِجُونَ مَا فِي خَزَائِنِ الْأَرْضِ وَمَا فُتِحَ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ بَرَكَاتٍ بَشَّرَهُم بِهَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَقَدْ تَحَقَّقَ مَا أَخْبَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْظُرْ لِبِلَادِ الْعَرَبِ الصَّحْرَاوِيَّةِ كَيْفَ كَانَتْ؟ وَكَيْفَ أَصْبَحَتْ؟

كَأَنِّي بِرَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَعْلَمُ أَثَرَ هَذَا الْغِنَى وَمَا يَنْتُجُ عَنْهُ، فَقَدْ كَانَ يُمْكِنُ لِلأُمَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ أَنْ تَتَدَارَكَ أَمْرَهَا وَأَنْ تَعْرِفَ مَا يَجِبُ عَلَيْهَا لَكِنَّهَا تَفَرَّقَتْ شِيَعاً وَأَحْزَابًا، وَبِقَدْرِ مَا كَانَ الْمَالُ عَوْنًا لِلْبَعْضِ كَانَ الْمَالُ بَلَاءً عَلَى الْبَعْضِ الْآخَرِ، فَذَهَبُوا بِهِ كُلَّ مَذْهَبٍ، وَسَلَكُوا كُلَّ مَسْلَكٍ يُرْضِي الشَّيْطَانَ مِنْ إِسْرَافٍ وَتَجَاوُزٍ ، وَكَانَ مِنَ الْمُمْكِنِ بِهَذَا الثَّرَاءِ الْعَظِيمِ أَنْ تَحْفَظَ الْأُمَّةَ الْإِسْلَامِيَّةَ مَكَانَتَهَا بَيْنَ الْأُمَمِ،

---

١) انظر: الإصابة في تمييز الصحابة (٣/ ٣٥)، ترجمة "سراقة بن مالك بن جعشم". وتهذيب الأسماء (١/ ٢١٠). وأصل القصة رواها البخاري برقم (٣٩٠٦). والمِنْطَقَة: كلُّ ما شُدَّ به الوسَط. والأزبُّ: الكثيرُ الشَّعر . وانظر وتهذيب الأسماء ١/ ٢١٠

٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٢٩٧٧) ، ومسلم برقم (٥٢٣) .

وَتَبْقَى هَيْبَتُهَا، وَيَرْحَمَ قَوِيُّهَا ضَعِيفَهَا، وَتَتَعَاوَنَ فِي الدِّفَاعِ عَنْ مُقَدَّسَاتِهَا، وَصَدَقَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حِينَ قَالَ: { **أَخْوَفُ مَا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مَا يُخْرِجُ اللهُ لَكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا. قَالُوا: وَمَا زَهْرَةُ الدُّنْيَا يَا رَسُولَ اللهِ؟ قَالَ: بَرَكَاتُ الْأَرْضِ** }(١).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ لِأَصْحَابِهِ عِنْدَما قَدِمَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الجَرَّاحِ مِنَ البَحْرَيْنِ بِجِزْيَتِهَا: { **فَأَبْشِرُوا وَأَمِّلُوا مَا يَسُرُّكُمْ، فَوَاللهِ لاَ الفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ** }(٢).

وَعَنْ عَمْرِو بْنِ الْعَاصِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: { **إِذَا فُتِحَتْ عَلَيْكُمْ فَارِسُ وَالرُّومُ أَيُّ قَوْمٍ أَنْتُمْ؟** } قَالَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنِ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: نَقُولُ كَمَا أَمَرَنَا اللهُ. قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:{ **أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ، تَتَنَافَسُونَ، ثُمَّ تَتَحَاسَدُونَ، ثُمَّ تَتَدَابَرُونَ، ثُمَّ تَتَبَاغَضُونَ، أَوْ نَحْوَ ذَلِكَ..** } الحديث(٣).

وَعَنْ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **إِنَّ اللهَ زَوَى لِي الْأَرْضَ، فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا، وَإِنَّ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مُلْكُهَا مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا، وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الْأَحْمَرَ وَالْأَبْيَضَ، وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لِأُمَّتِي أَنْ لَا يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ، وَإِنَّ رَبِّي**

---

١) رواه مسلم برقم (١٠٥٢) .
٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣١٥٨)، ومسلم برقم (٢٩٦١) .
٣) رواه مسلم برقم (٢٩٦٢).

قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لَا يُرَدُّ، وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لِأُمَّتِكَ أَنْ لَا أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ، وَأَنْ لَا أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَى أَنْفُسِهِمْ، يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ، وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا - أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا - حَتَّى يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضًا، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضًا }(١).

١٥- عُلُوُّ شَأْنِ أُمَّتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَهِيَ خَيْرُ الأُمَمِ:(٢)

وَكَمَا أَكْرَمَ الله تعالى نبيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كذلكَ أكرمه في أمته بأن جعل أمته أسمَى الأممِ ، وَخصَّها بخصائصَ عديدةٍ، منها :

أ- أَكْمَلَ اللهُ لَهُمُ الدِّينَ، وَأَتَمَّ عَلَيْهَا النِّعْمَةَ :

فَأُمَّةُ الْإِسْلَامِ هِيَ الْأُمَّةُ الْوَحِيدَةُ الَّتِي أَكْمَلَ اللهُ لَهَا دِينَهَا مِنْ دُونِ الْأُمَمِ مِنْ قَبْلُ، وَأَتَمَّ عَلَيْهَا النِّعْمَةَ، فَلَا تَحْتَاجُ إِلَى شَيْءٍ مِنَ التَّشْرِيعِ بَعْدَهُ.

عَنْ طَارِقِ بْنِ شِهَابٍ، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ إِلَى عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فَقَالَ: يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ آيَةٌ فِي كِتَابِكُمْ تَقْرَءُونَهَا، لَوْ عَلَيْنَا نَزَلَتْ، مَعْشَرَ الْيَهُودِ، لَاتَّخَذْنَا ذَلِكَ الْيَوْمَ عِيدًا، قَالَ: وَأَيُّ آيَةٍ؟ قَالَ: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ۚ فَمَنِ ٱضْطُرَّ فِي مَخْمَصَةٍ غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِّإِثْمٍ ۙ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ

---

١) رواه مسلم برقم (٢٨٨٩).

٢) لمزيد من التفصيل حول مكانة أمة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ انظر: فضائل الأمة الإسلامية في الدنيا وفي الآخرة، د/ عبد الله عبد الرحيم العبادي من ص ٤٩ وما بعدها ط دار البشائر / بيروت، وكتاب عظيم قدره صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - خليل بن إبراهيم ملا خاطر. ط دار القبلة سنة ١٤٢٩هـ .

رَّحِيمٌ ﴿٣﴾ ﴾ (المائدة:٣)، فَقَالَ عُمَرُ: « إِنِّي لَأَعْلَمُ الْيَوْمَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، وَالْمَكَانَ الَّذِي نَزَلَتْ فِيهِ، «نَزَلَتْ عَلَى رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِعَرَفَاتٍ فِي يَوْمِ جُمُعَةٍ »(١).

ب- جُعِلَتْ صُفُوفُهَا فِي الصَّلَاةِ كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ :

مِمَّا فَضَّلَ اللهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةِ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا أَنْ جَعَلَ صُفُوفَهَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: **{ فُضِّلْنَا عَلَى النَّاسِ بِثَلَاثٍ: جُعِلَتْ صُفُوفُنَا كَصُفُوفِ الْمَلَائِكَةِ، وَجُعِلَ لَنَا الأَرْضُ كُلُّهَا مَسْجِدًا ، وَجُعِلَتْ تُرْبَتُهَا لَنَا طَهُورًا إِذَا لَمْ نَجِدِ الْمَاءَ}**(٢).

وَعَنْ جَابِرِ بْنِ سُمَرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : **{ أَلَا تُصَفُّونَ كَمَا تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ }**، قُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تُصَفُّ الْمَلَائِكَةُ عِنْدَ رَبِّهَا؟ قَالَ: **{ يُتِمُّونَ الصُّفُوفَ الْأُوَلَ ، وَيَتَرَاصُّونَ فِي الصَّفِّ }**(٣).

ج- انْفِرَادُهَا بِدُخُولِ الْبَابِ الْأَيْمَنِ مِنَ الْجَنَّةِ :

وَمِمَّا كُرِّمَتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةِ تَعْظِيمًا لَهَا مَا جَاءَ فِي حَدِيثِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الشَّفَاعَةِ وَفِيهِ: **{ فَأَرْفَعُ رَأْسِي، فَأَقُولُ: أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، أُمَّتِي يَا رَبِّ، فَيُقَالُ: يَا مُحَمَّد أَدْخِلْ مِنْ أُمَّتِكَ مَنْ لاَ حِسَابَ عَلَيْهِمْ مِنَ البَابِ الأَيْمَنِ مِنْ أَبْوَابِ الجَنَّةِ، وَهُمْ شُرَكَاءُ النَّاسِ فِيمَا سِوَى ذَلِكَ مِنَ الأَبْوَابِ }**(٤) .

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٥)، ومسلم برقم (٣٠١٧)، واللفظ له .
٢) رواه مسلم برقم (٥٢٢).
٣) رواه مسلم برقم (٤٣٠).
٤) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٧١٢)، ومسلم برقم (١٩٤).

د- فُضِّلَتْ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِيَوْمِ الجُمُعَةِ، وَسَاعَتِهَا، وَصَلَاةِ الْعِشَاءِ :

أَمَّا صَلَاةُ الجُمُعَةِ:

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { خَيْرُ يَوْمٍ طَلَعَتْ عَلَيْهِ الشَّمْسُ يَوْمُ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ أُدْخِلَ الجَنَّةَ، وَفِيهِ أُخْرِجَ مِنْهَا، وَلَا تَقُومُ السَّاعَةُ إِلَّا فِي يَوْمِ الجُمُعَةِ }(١).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَكَرَ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَقَالَ: { فِيهِ سَاعَةٌ، لاَ يُوَافِقُهَا عَبْدٌ مُسْلِمٌ، وَهُوَ قَائِمٌ يُصَلِّي، يَسْأَلُ اللهَ تَعَالَى شَيْئًا، إِلَّا أَعْطَاهُ إِيَّاهُ }، وَأَشَارَ بِيَدِهِ يُقَلِّلُهَا (٢).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّ مِنْ أَفْضَلِ أَيَّامِكُمْ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فِيهِ خُلِقَ آدَمُ، وَفِيهِ قُبِضَ، وَفِيهِ النَّفْخَةُ، وَفِيهِ الصَّعْقَةُ، فَأَكْثِرُوا عَلَيَّ مِنَ الصَّلَاةِ فِيهِ، فَإِنَّ صَلَاتَكُمْ مَعْرُوضَةٌ عَلَيَّ } قَالَ: قَالُوا: يَا رَسُولَ الله، وَكَيْفَ تُعْرَضُ صَلَاتُنَا عَلَيْكَ وَقَدْ أَرِمْتَ - يَقُولُونَ: بَلِيتَ -؟ فَقَالَ: { إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ عَلَى الْأَرْضِ أَجْسَادَ الْأَنْبِيَاءِ }(٣).

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ يَوْمَ الجُمُعَةِ أَوْ لَيْلَةَ الجُمُعَةِ إِلَّا وَقَاهُ

---

١) رواه مسلم برقم (٨٥٤).

٢) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٩٣٥)، ومسلم برقم (٨٥٢).

٣) رواه أبو داود برقم (١٠٤٧)، وابن ماجه برقم (١٠٨٥)، والنسائي برقم (١٣٤٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح أبي داود برقم (٩٦٢).

اللهُ فِتْنَةَ الْقَبْرِ }[١].

وَأَمَّا صَلَاةُ الْعِشَاءِ:

فَإِنَّهَا كَذَلِكَ مِنْ فَضَائِلِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ خَصَائِصِهَا، فَقَدْ جَاءَ عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: « مَكَثْنَا ذَاتَ لَيْلَةٍ نَنْتَظِرُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِصَلَاةِ الْعِشَاءِ الْآخِرَةِ، فَخَرَجَ إِلَيْنَا حِينَ ذَهَبَ ثُلُثُ اللَّيْلِ – أَوْ بَعْدَهُ – فَلَا نَدْرِي أَشَيْءٌ شَغَلَهُ أَهْلُهُ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ، فَقَالَ حِينَ خَرَجَ: **{ إِنَّكُمْ لَتَنْتَظِرُونَ صَلَاةً مَا يَنْتَظِرُهَا أَهْلُ دِينٍ غَيْرُكُمْ، وَلَوْلَا أَنْ يَثْقُلَ عَلَى أُمَّتِي لَصَلَّيْتُ بِهِمْ هَذِهِ السَّاعَةَ }** »[٢].

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: « أَعْتَمَ النبيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِالصَّلَاةِ حَتَّى ابْهَارَّ اللَّيْلُ[٣]، ثُمَّ خَرَجَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَصَلَّى بِهِمْ، فَلَمَّا قَضَى صَلَاتَهُ، قَالَ لِمَنْ حَضَرَهُ: **{ عَلَى رِسْلِكُمْ، أُعْلِمُكُمْ وَأَبْشِرُوا أَنَّ مِنْ نِعْمَةِ اللهِ عَلَيْكُمْ أَنَّهُ لَيْسَ مِنَ النَّاسِ أَحَدٌ يُصَلِّي هَذِهِ السَّاعَةَ غَيْرُكُمْ }**، قَالَ أَبُو مُوسَى: فَرَجَعْنَا فَرِحِينَ بِمَا سَمِعْنَا مِنْ رَسُولِ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ »[٤].

وَفِي رِوَايَةٍ عَنْ مُعَاذٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: **{ أَعْتِمُوا بِهَذِهِ الصَّلَاةِ فَإِنَّكُمْ**

---

١) رواه أحمد برقم (٦٥٨٢)، والترمذي برقم (١٠٧٤) ، وقال: حديث غريب، وحسَّنه الألباني في صحيح الجامع برقم (٨٧٧٣) .

٢) رواه مسلم بهذا اللفظ برقم (٦٣٩)، وهو عند البخاري بلفظ آخر برقم (٥٧٠).

٣) أي : انتصف .

٤) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٥٦٧)، ومسلم برقم (٦٤١)، واللفظ له.

قَدْ فُضِّلْتُمْ بِهَا عَلَى سَائِرِ الْأُمَمِ، وَلَمْ تُصَلِّهَا أُمَّةٌ قَبْلَكُمْ }(١).

وَعَنْ عُثْمَانَ بْنِ عَفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { مَنْ صَلَّى الْعِشَاءَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا قَامَ نِصْفَ اللَّيْلِ، وَمَنْ صَلَّى الصُّبْحَ فِي جَمَاعَةٍ فَكَأَنَّمَا صَلَّى اللَّيْلَ كُلَّهُ }(٢).

هـ- هَذِهِ الْأُمَّةُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ :

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { نَحْنُ الْآخِرُونَ الْأَوَّلُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَنَحْنُ أَوَّلُ مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ، بَيْدَ أَنَّهُمْ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِنَا، وَأُوتِينَاهُ مِنْ بَعْدِهِمْ }(٣).

وَعَنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { الْجَنَّةَ حُرِّمَتْ عَلَى الأَنْبِيَاءِ كُلِّهِمْ حَتَّى أَدْخُلَهَا ، وَحُرِّمَتْ عَلَى الأُمَمِ حَتَّى تَدْخُلَهَا أُمَّتِي }(٤).

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: { لَيَدْخُلَنَّ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا، أَوْ سَبْعُ مِائَةِ أَلْفٍ، لاَ يَدْخُلُ أَوَّلُهُمْ حَتَّى يَدْخُلَ آخِرُهُمْ، وُجُوهُهُمْ عَلَى صُورَةِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ }(٥) .

---

١) رواه أحمد برقم (٢٢٠٦٦)، وأبو داود برقم (٤٢١)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٠٤٣).
٢) رواه مسلم برقم (٦٥٦).
٣) رواه مسلم برقم (٨٥٥).
٤) رواه الطبراني في المعجم الأوسط برقم (٩٤٢)، وضعَّفه الألباني في ضعيف الجامع الصغير برقم (١٤٢٨).
٥) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣٢٤٧)، ومسلم برقم (٢١٩).

و- شَهْرُ رَمَضَانَ وَلَيْلَةُ الْقَدْرِ :

قَالَ تَعَالَى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَٰتٍ مِّنَ ٱلْهُدَىٰ وَٱلْفُرْقَانِ ۚ فَمَن شَهِدَ مِنكُمُ ٱلشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ ﴾ (البقرة :١٨٥).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا لَيْلَةُ ٱلْقَدْرِ ﴿٢﴾ ﴾ (القدر).

وَقَالَ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ ۚ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِينَ ﴿٣﴾ ﴾ (الدخان).

وَقَدِ اخْتَلَفَ الْعُلَمَاءُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٨٣﴾ ﴾ (البقرة:١٨٣).

فَقِيلَ : التَّشْبِيهُ ﴿ كَمَا كُتِبَ ﴾ رَاجِعٌ إِلَى وَقْتِ الصَّوْمِ، وَقَدْرِ الصَّوْمِ؛ فَإِنَّ اللهَ كَتَبَ عَلَى قَوْمِ مُوسَى، وَقَوْمِ عِيسَى صَوْمَ رَمَضَانَ، فَغَيَّرُوا، وَبَدَّلُوا، وَزَادَ أَحْبَارُهُمْ عَلَيْهِمْ عَشَرَةَ أَيَّامٍ، ثُمَّ مَرِضَ بَعْضُ أَحْبَارِهِمْ، فَنَذَرَ إِنْ شَفَاهُ اللهُ أَنْ يَزِيدَ عَشْرَةَ أَيَّامٍ، فَفَعَلَ، فَصَارَ صَوْمُ النَّصَارَى خَمْسِينَ يَوْمًا، فَصَعُبَ عَلَيْهِمْ فِي الْحَرِّ ، فَنَقَلُوهُ إِلَى الرَّبِيعِ.

وَقِيلَ: كَتَبَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ صَوْمَ شَهْرِ رَمَضَانَ عَلَى كُلِّ أُمَّةٍ.

وَقِيلَ: التَّشْبِيهُ رَاجِعُ إِلَى أَصْلِ وُجُوبِهِ، لَا فِي الْوَقْتِ وَالْكَيْفِيَّةِ.

وَقِيلَ: التَّشْبِيهُ وَاقِعٌ عَلَى الصَّوْمِ، وَعَلَى الصِّفَةِ، وَعَلَى الْعُدَّةِ، وَإِنِ اخْتَلَفَ الصِّيَامَانِ بِالزِّيَادَةِ وَالنُّقْصَانِ: أَيْ كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ مِنْ كُلِّ شَهْرٍ، وَيَوْمَ عَاشُورَاءَ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الْيَهُودِ، وَكَانَ ذَلِكَ فِي أَوَّلِ الْإِسْلَامِ، ثُمَّ نُسِخَ بِصِيَامِ شَهْرِ رَمَضَانَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ. وَهُوَ قَوْلُ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا. **وَهَذَا هُوَ الْمُخْتَارُ**، عَلَى أَنَّ صِيَامَ شَهْرِ رَمَضَانَ مِنْ فَضَائِلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ خَصَائِصِهَا.

وَمِمَّا يُقَوِّي هَذَا الْقَوْلَ وَيُؤَيِّدُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ شَهْرُ رَمَضَانَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ فِيهِ ٱلْقُرْءَانُ ﴾، وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ فِى لَيْلَةِ ٱلْقَدْرِ ﴿١﴾ ﴾.

وَمِمَّا يُؤَيِّدُ ذَلِكَ أَيْضًا: مَا وَرَدَ أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ { أُرِيَ أَعْمَارَ النَّاسِ قَبْلَهُ. أَوْ مَا شَاءَ اللهُ مِنْ ذلِكَ. فَكَأَنَّهُ تَقَاصَرَ أَعْمَارَ أُمَّتِهِ أَنْ لاَ يَبْلُغُوا مِنَ الْعَمَلِ، مِثْلَ الَّذِي بَلَغَ غَيْرُهُمْ فِي طُولِ الْعُمْرِ، فَأَعْطَاهُ اللهُ لَيْلَةَ الْقَدْرِ، خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ }(١).

وَإِذَا كَانَتْ لَيْلَةُ الْقَدْرِ مِنْ خَصَائِصِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَالْقُرْآنُ الْكَرِيمُ هُوَ قُرْآنُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَقَدْ أُنْزِلَ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، إِذَنْ فَشَهْرُ رَمَضَانَ مِنْ فَضَائِلِ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَمِنْ خَصَائِصِهَا.

وَلَوْ تَتَبَّعْنَا التَّارِيخَ، وَقَلَّبْنَا صَفَحَاتِهِ عَلَى مَرِّ الْقُرونِ لَمَا وَجَدْنَا أُمَّةً قَدْ كَرَّمَهَا الْخَالِقُ الْعَظِيمُ مِثْلَ هَذَا التَّكْرِيمِ، وَفَضَّلَهَا مِثْلَ هَذَا التَّفْضِيلَ مِنَ الْخَيْرِ الْعَمِيمِ، وَالْعَطَاءِ الْجَزِيلِ.

• إِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ بَنِي الْبَشَرِ، فَإِنَّ محمدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ الْبَشَرِ عَلَى الْإِطْلَاقِ: { أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا فَخْرَ }(٢).

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ الرُّسُلِ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سَيِّدُ الْأَنْبِيَاءِ عَلَى الْإِطْلَاقِ؛ لِأَنَّهُ خَاتَمُ الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ؛ ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا

---

١) رواه مالك في موطئه برقم (١٥). ترتيب مُحَمَّد فؤاد عبد الباقي، وضعَّفه الألباني في ضعيف الترغيب والترهيب برقم (٦٠٤).
٢) سبق تخريجه.

﴿وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾﴾ (سبأ).

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ فِي الْأَزْمِنَةِ، فَإِنَّ أَفْضَلَ الْقُرُونِ: قَرْنُ النَّبِيِّ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ ثمَّ الْقرنَيْنِ التَّالِيَيْنِ، وَهِيَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ؛ لِقَوْلِهِ صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ : **{ خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ }**(١).

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ الْأَشْهُرِ، فَإِنَّ شَهْرَ رَمَضَانَ سَيِّدُ الشُّهُورِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ اللَّيَالِي، فَإِنَّ لَيْلَةَ الْقَدْرِ سَيِّدَةُ اللَّيَالِي عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ الْأَيَّامِ، فَإِنَّ يَوْمَ عَرَفَةَ هُوَ سَيِّدُ الأَيَّامِ خِلالَ العَامِ، وَإِنَّ يَوْمَ الْجُمُعَةِ هُوَ سَيِّدُ الْأَيَّامِ خِلالَ الأسْبُوعِ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ السَّاعَاتِ، فَإِنَّ سَاعَةَ يَوْمِ الْجُمُعَةِ أَفْضَلُ السَّاعَاتِ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ الْأَمْكِنَةِ، فَإِنَّ الْكَعْبَةَ أَفْضَلُ الْأَمْكِنَةِ عَلَى الْإِطْلَاقِ، وَهِيَ خَاصَّةٌ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

• وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ الْمِيَاهِ ، فَإِنَّ مَاءَ زَمْزَمَ أَفْضَلُ الْمِيَاهِ عَلَى الْإِطْلَاقِ ، وَهُوَ خَاصٌّ بِهَذِهِ الْأُمَّةِ.

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٢٦٥٢)، ومسلم برقم (٢٥٣٣) .

وَإِنْ كَانَ هُنَاكَ تَفْضِيلٌ بَيْنَ الْأُمَمِ، فَإِنَّ أُمَّةَ مُحَمَّد هِيَ أَفْضَلُ الْأُمَمِ عَلَى الْإِطْلَاقِ.

كُلُّ هَذِهِ الْأَفْضَلِيَّةِ مَوْجُودَةٌ فِي أُمَّةِ مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهَذِهِ الْفضَائِلُ لَا تُوجَدُ فِي أَيِّ أُمَّةٍ مِنَ الأُمَمِ أَوْ دِينٍ مِنَ الْأَدْيَانِ، ﴿وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴿١٠٥﴾﴾ (البقرة).

ز- هَذِهِ الْأُمَّةُ شُهَدَاءُ اللهِ فِي أَرْضِهِ :

وَمِمَّا خَصَّ اللهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَفَضَّلَهَا بِهِ: شَهَادَتُهَا عَلَى النَّاسِ بِالْخَيْرِ، أَوْ بِالشَّرِّ، فَهِي مَقْبُولَةٌ عِنْدَ اللهِ.

عَنْ أَنَسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: مَرُّوا بِجِنَازَةٍ فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا خَيْرًا فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَجَبَتْ }. ثُمَّ مَرُّوا بِأُخْرَى ، فَأَثْنَوْا عَلَيْهَا شَرًّا، فَقَالَ: { وَجَبَتْ }. فَقَالَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ: مَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: **{ هَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ خَيْرًا، فَوَجَبَتْ لَهُ الْجَنَّةُ، وَهَذَا أَثْنَيْتُمْ عَلَيْهِ شَرًّا، فَوَجَبَتْ لَهُ النَّارُ، أَنْتُمْ شُهَدَاءُ اللهِ فِي الأَرْضِ }**(١). وَفِي رِوَايَةٍ: **{ فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ وَمَا وَجَبَتْ؟ قَالَ: الْمَلَائِكَةُ شُهُودُ اللهِ فِي السَّمَاءِ وَأَنْتُمْ شُهُودُ اللهِ فِي الْأَرْضِ }**(٢).

ح- شُهَدَاءُ عَلَى الْأُمَمِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

أَيْ يَشْهَدُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى الْأُمَمِ قَبْلَهُمْ بِأَنَّ رُسُلَهُمْ قَدْ بَلَّغُوهُمُ الرِّسَالَةَ.

---

١) رواه البخاري برقم (١٣٦٧).
٢) رواه ابن أبي شيبة في مصنَّفه برقم (١١٩٩٤) .

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { يُدْعَى نُوحٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ يَا رَبِّ، فَيَقُولُ: هَلْ بَلَّغْتَ؟ فَيَقُولُ: نَعَمْ، فَيُقَالُ لِأُمَّتِهِ: هَلْ بَلَّغَكُمْ؟ فَيَقُولُونَ: مَا أَتَانَا مِنْ نَذِيرٍ، فَيَقُولُ: مَنْ يَشْهَدُ لَكَ؟ فَيَقُولُ: مُحَمَّد وَأُمَّتُهُ، فَتَشْهَدُونَ أَنَّهُ قَدْ بَلَّغَ: ﴿ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾. فَذَلِكَ قَوْلُهُ جَلَّ ذِكْرُهُ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾ }[1](البقرة:١٤٣).

ط- صَلَاةُ الْمَسِيحِ خَلْفَ إِمَامِهِمْ :

فَعَنْ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ : سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ :{ لَا تَزَالُ طَائِفَةٌ مِنْ أُمَّتِي يُقَاتِلُونَ عَلَى الْحَقِّ ظَاهِرِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، قَالَ: فَيَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَيَقُولُ أَمِيرُهُمْ: تَعَالَ صَلِّ لَنَا. فَيَقُولُ: لَا؛ إِنَّ بَعْضَكُمْ عَلَى بَعْضٍ أُمَرَاءُ تَكْرِمَةَ الله هَذِهِ الْأُمَّةَ }[2].

وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { كَيْفَ أَنْتُمْ إِذَا نَزَلَ ابْنُ مَرْيَمَ فِيكُمْ وَإِمَامُكُمْ مِنْكُمْ ؟ }[3].

---

١) رواه البخاري برقم (٤٤٨٧).
٢) رواه مسلم برقم (١٥٦).
٣) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٣٤٤٩)، ومسلم برقم (١٥٥) .

ي- ذِكْرُهَا فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ:

لَقَدْ ذَكَرَ اللهُ أُمَّةَ الْحَبِيبِ فِي الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ السَّابِقَةِ بِمَا يُعْرَفُونَ بِهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلْكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيْنَهُمْ تَرَىٰهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا ۖ سِيمَاهُمْ فِى وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ ٱلسُّجُودِ ۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ ۚ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسْتَغْلَظَ فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ ۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ﴿٢٩﴾﴾ (الفتح).

وَعَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا الْقَاسِمِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: { إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ: يَا عِيسَى إِنِّي بَاعِثٌ مِنْ بَعْدِكَ أُمَّةً إِنْ أَصَابَهُمْ مَا يُحِبُّونَ، حَمِدُوا اللهَ وَشَكَرُوا، وَإِنْ أَصَابَهُمْ مَا يَكْرَهُونَ احْتَسَبُوا، وَصَبَرُوا، وَلَا حِلْمَ، وَلَا عِلْمَ قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ هَذَا لَهُمْ، وَلَا حِلْمَ وَلَا عِلْمَ؟ قَالَ: أُعْطِيهِمْ مِنْ حِلْمِي، وَعِلْمِي }(١).

ك- لَنْ تَهْلِكَ هَذِهِ الْأُمَّةُ بِجُوعٍ ، وَلَنْ يُسَلَّطَ عَلَيْهَا عَدُوٌّ مِنْ غَيْرِهَا:

فَعَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ « أَقْبَلَ ذَاتَ يَوْمٍ مِنَ الْعَالِيَةِ حَتَّى إِذَا مَرَّ بِمَسْجِدِ بَنِي مُعَاوِيَةَ، دَخَلَ فَرَكَعَ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ، وَصَلَّيْنَا مَعَهُ، وَدَعَا رَبَّهُ طَوِيلًا، ثُمَّ انْصَرَفَ إِلَيْنَا، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { سَأَلْتُ رَبِّي ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي ثِنْتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُ رَبِّي: أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالسَّنَةِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا

---

١) رواه أحمد برقم (٢٧٥٤٥)، والحاكم في مستدركه برقم (١٢٨٩)، وقال: حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الْبُخَارِيِّ، وَلَمْ يُخَرِّجَاه.

يُهْلِكَ أُمَّتِي بِالْغَرَقِ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يَجْعَلَ بَأْسَهُمْ بَيْنَهُمْ فَمَنَعَنِيهَا } »(١).

وَعَنْ خَبَّابِ بْنِ الْأَرَتِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : أَنَّهُ رَاقَبَ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اللَّيْلَةَ كُلَّهَا حَتَّى كَانَ مَعَ الْفَجْرِ ، فَلَمَّا سَلَّمَ رَسُولُ الله مِنْ صَلَاتِهِ جَاءَهُ خَبَّابٌ فَقَالَ : يَا رَسُولَ الله ، بِأَبِي أَنْتَ وَأُمِّي ! لَقَدْ صَلَّيْتَ اللَّيْلَةَ صَلَاةً مَا رَأَيْتُكَ صَلَّيْتَ نَحْوَهَا ؟ قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أَجَلْ إِنَّهَا صَلَاةُ رَغْبَةٍ وَرَهْبَةٍ، إِنِّي سَأَلْتُ اللهَ فِيهَا ثَلَاثًا، فَأَعْطَانِي اثْنَتَيْنِ وَمَنَعَنِي وَاحِدَةً، سَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُهْلِكَ أُمَّتِي بِسَنَةٍ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ غَيْرِهِمْ فَأَعْطَانِيهَا، وَسَأَلْتُهُ أَنْ لَا يُذِيقَ بَعْضَهُمْ بَأْسَ بَعْضٍ فَمَنَعَنِيهَا }(٢).

ل- لَا يُؤَاخِذُ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ بِالْخَطَأِ، وَالنِّسْيَانِ، وَالْإِكْرَاهِ، وَمَا تُحَدِّثُ بِهِ النَّفْسُ:

فَعَنْ أَبِي ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: { إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ تَجَاوَزَ لِأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَعْمَلْ، أَوْ تَكَلَّمْ بِهِ }(٣).

م- هُمْ أَوَّلُ مَنْ يَجْتَازُ الصِّرَاطَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ:

وَمِنْ حدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ مَرْفوعًا: { وَيُضْرَبُ جِسْرُ جَهَنَّمَ فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُجِيزُ، وَدُعَاءُ الرُّسُلِ يَوْمَئِذٍ: اللَّهُمَّ سَلِّمْ سَلِّمْ. وَبِهِ كَلَالِيبُ مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ،

---

١) رواه مسلم برقم (٢٨٩٠).

٢) رواه أحمد برقم (٢١٠٥٣)، والنسائي برقم (١٦٣٨)، والترمذي، واللفظ له، برقم (٢١٧٥)، وقال: حسن صحيح. وانظر كتابنا :"الابتلاء والصبر عليه".

٣) رواه البخاري برقم (٦٦٦٤)، ومسلم برقم (١٢٧)، واللفظ له.

أَمَا رَأَيْتُمْ شَوْكَ السَّعْدَانِ؟، قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ الله، قَالَ: فَإِنَّهَا مِثْلُ شَوْكِ السَّعْدَانِ، غَيْرَ أَنَّهَا لاَ يَعْلَمُ قَدْرَ عِظَمِهَا إِلَّا اللهُ، فَتَخْطَفُ النَّاسَ بِأَعْمَالِهِمْ }(١)

وَفِي حَدِيثِ ثَوْبَانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي قِصَّةِ سُؤَالِ حَبْرِ الْيَهُودِ، وَفِيهِ: فَقَالَ الْيَهُودِيُّ : أَيْنَ يَكُونُ النَّاسُ يَوْمَ تُبَدَّلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ ؟ فَقَالَ رَسُولُ الله - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { هُمْ فِي الظُّلْمَةِ دُونَ الْجِسْرِ } . قَالَ : فَمَنْ أَوَّلُ النَّاسِ إِجَازَةً؟ قَالَ: { فُقَرَاءُ الْمُهَاجِرِينَ }(٢).

ر- لَهَا عَلَامَةٌ تَعْرِفُ بِهَا رَبَّهَا عَزَّ وَجَلَّ :

وَمِمَّا خَصَّ اللهُ هَذِهِ الْأُمَّةَ: أَنْ جَعَلَ لَهَا عَلَامَةً تَعْرِفُ بِهَا رَبَّهَا عَزَّ وَجَلَّ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يُكْشَفُ عَن سَاقٍ وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلَا يَسْتَطِيعُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (القلم).

وَفِي الْحَدِيثِ: { ... حَتَّى يَبْقَى مَنْ كَانَ يَعْبُدُ اللهَ مِنْ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، فَيُقَالُ لَهُمْ: مَا يَحْبِسُكُمْ وَقَدْ ذَهَبَ النَّاسُ؟ فَيَقُولُونَ: فَارَقْنَاهُمْ، وَنَحْنُ أَحْوَجُ مِنَّا إِلَيْهِ اليَوْمَ، وَإِنَّا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي: لِيَلْحَقْ كُلُّ قَوْمٍ بِمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ، وَإِنَّمَا نَنْتَظِرُ رَبَّنَا، قَالَ: فَيَأْتِيهِمُ الجَبَّارُ فِي صُورَةٍ غَيْرِ صُورَتِهِ الَّتِي رَأَوْهُ فِيهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ، فَيَقُولُ: أَنَا رَبُّكُمْ، فَيَقُولُونَ: أَنْتَ رَبُّنَا، فَلاَ يُكَلِّمُهُ إِلَّا الأَنْبِيَاءُ، فَيَقُولُ: هَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُ آيَةٌ تَعْرِفُونَهُ؟ فَيَقُولُونَ: السَّاقُ، فَيَكْشِفُ عَنْ سَاقِهِ، فَيَسْجُدُ لَهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ، وَيَبْقَى مَنْ كَانَ يَسْجُدُ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٦٥٧٣)، ومسلم برقم (١٨٢) .
٢) رواه مسلم برقم (٣١٥) .

لله رِيَاءً وَسُمْعَةً، فَيَذْهَبُ كَيْمَا يَسْجُدَ، فَيَعُودُ ظَهْرُهُ طَبَقًا وَاحِدًا..}(١).

س- تَأْتِي هَذِهِ الْأُمَّةُ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ :

فَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: { إِنَّ أُمَّتِي يُدْعَوْنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِن آثَارِ الْوُضُوءِ، فَمَن اسْتَطَاعَ مِنْكُمْ أَنْ يُطِيلَ غُرَّتَهُ فَلْيَفْعَلْ }(٢).

وَفِي رِوَايَةٍ لِمُسْلِمٍ: { قَالُوا: يَا رَسُولَ الله أَتَعْرِفُنَا يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ نَعَمْ لَكُمْ سِيمَا لَيْسَتْ لِأَحَدٍ مِنْ الْأُمَمِ، تَرِدُونَ عَلَيَّ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنْ أَثَرِ الْوُضُوءِ }(٣).

ع- هُمْ أَكْثَرُ أَهْلِ الْجَنَّةِ :

وَمِمَّا فَضَّلَ اللهُ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةَ، وَخَصَّهَا بِهِ دُونَ غَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ أَنَّهَا سَتَكُونُ أَكْثَرَ الْأُمَمِ الَّذِينَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ.

عَنْ عَبْدِ الله بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطَبَنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَسْنَدَ ظَهْرَهُ إِلَى قُبَّةٍ مِنْ أَدَمٍ فَقَالَ: { أَلَا لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ إِلَّا نَفْسٌ مُسْلِمَةٌ، اللهُمَّ هَلْ بَلَّغْتُ؟ اللهُمَّ اشْهَدْ، أَتُحِبُّونَ أَنَّكُمْ رُبُعُ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟} فَقُلْنَا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله، فَقَالَ: { أَتُحِبُّونَ أَنْ تَكُونُوا ثُلُثَ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ } قَالُوا: نَعَمْ، يَا رَسُولَ الله قَالَ: { إِنِّي

---

١) رواه البخاري برقم (٧٤٣٩) ، واللفظ له، ورواه مسلم مختصرًا برقم (٢٢).

٢) رواه البخاري برقم (١٣٦). والغرة : ما زاد على فرض الوجه من أطراف الناصية، والأذن . والتحجيل: غسل ما فوق الفرض من اليد، والرجل.

٣) رواه مسلم برقم (٢٤٧).

لَأَرْجُو أَنْ تَكُونُوا شَطْرَ أَهْلِ الْجَنَّةِ، مَا أَنْتُمْ فِي سِوَاكُمْ مِنَ الْأُمَمِ إِلَّا كَالشَّعْرَةِ السَّوْدَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَبْيَضِ، أَوْ كَالشَّعْرَةِ الْبَيْضَاءِ فِي الثَّوْرِ الْأَسْوَدِ }(١).

وَعَنْ بُرَيْدَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ :{ أَهْلُ الْجَنَّةِ عِشْرُونَ وَمِائَةُ صَفٍّ ثَمَانُونَ مِنْهَا مِنْ هَذِهِ الْأُمَّةِ وَأَرْبَعُونَ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ }(٢).

ف- يَفْدِيهَا اللهُ تَعَالَى بِغَيْرِهَا مِنَ الْأُمَمِ :

عَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ:{ إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ دَفَعَ اللهُ عَزَّ وَجَلَّ إِلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَهُودِيًّا أَوْ نَصْرَانِيًّا، فَيَقُولُ هَذَا فِكَاكُكَ مِنَ النَّار }(٣).

ص- زِيَادَةُ الثَّوَابِ مَعَ قِلَّةِ الْعَمَلِ :

فَعَنِ ابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنْ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: قَالَ: { إِنَّمَا بَقَاؤُكُمْ فِيمَنْ سَلَفَ مِنَ الأُمَمِ، كَمَا بَيْنَ صَلاَةِ العَصْرِ إِلَى غُرُوبِ الشَّمْسِ، أُوتِيَ أَهْلُ التَّوْرَاةِ التَّوْرَاةَ، فَعَمِلُوا بِهَا حَتَّى انْتَصَفَ النَّهَارُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيَ أَهْلُ الإِنْجِيلِ الإِنْجِيلَ، فَعَمِلُوا بِهِ حَتَّى صُلِّيَتِ العَصْرُ ثُمَّ عَجَزُوا، فَأُعْطُوا قِيرَاطًا قِيرَاطًا، ثُمَّ أُوتِيتُمُ القُرْآنَ، فَعَمِلْتُمْ بِهِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ، فَأُعْطِيتُمْ قِيرَاطَيْنِ قِيرَاطَيْنِ، فَقَالَ أَهْلُ الكِتَابِ: هَؤُلاَءِ أَقَلُّ مِنَّا عَمَلًا وَأَكْثَرُ أَجْرًا، قَالَ اللهُ: هَلْ

---

١) رواه البخاري برقم (٤٧٤١). ومسلم برقم (٢٢١) واللفظ له.
٢) رواه أحمد برقم (٢٢٩٤٠)، والترمذي برقم (٢٥٤٦) وحسَّنه، وابن ماجه برقم (٤٢٨٩)، وغيرهما.
٣) رواه مسلم برقم (٢٧٦٧).

ظَلَمْتُكُمْ مِنْ حَقِّكُمْ شَيْئًا؟ قَالُوا: لاَ، قَالَ: فَهُوَ فَضْلِي أُوتِيهِ مَنْ أَشَاءُ }(١).

ق- كَثْرَةُ الشَّفَاعَةِ فِي أُمَّتِهِ :

وَمِمَّا أَكْرَمَ اللهُ بِهِ نَبِيَّهُ وَأُمَّتَهُ وَفَضَّلَهَا بِهِ: كَثْرَةُ الشَّفَاعَةِ فِيهَا؛ فَيَشْفَعُ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ، فِي عَدَدٍ كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ.

عَنْ عَبْدِ اللهِ بْنِ شَقِيقٍ قَالَ: كُنْتُ مَعَ رَهْطٍ بِإِيلِيَاءَ فَقَالَ رَجُلٌ مِنْهُمْ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: { يَدْخُلُ الجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ مِنْ أُمَّتِي أَكْثَرُ مِنْ بَنِي تَمِيمٍ }، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللهِ سِوَاكَ؟ قَالَ: { سِوَايَ }(٢).

وَعَنِ الْحَارِثِ بْنِ أُقَيْشٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { إِنَّ مِنْ أُمَّتِي مَنْ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَتِهِ أَكْثَرُ مِنْ مُضَرَ }(٣).

وَعَنْ أَبِي أُمَامَةَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: { لَيَدْخُلَنَّ الْجَنَّةَ بِشَفَاعَةِ رَجُلٍ لَيْسَ بِنَبِيٍّ، مِثْلُ الْحُيَّيْنِ، أَوْ مِثْلُ أَحَدِ الْحُيَّيْنِ : رَبِيعَةَ، وَمُضَرَ } فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللهِ ، أَوَ مَا رَبِيعَةُ مِنْ مُضَرَ؟ فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : { إِنَّمَا أَقُولُ مَا أُقَوَّلُ }(٤).

***

١) رواه البخاري برقم (٧٥٣٣).
٢) رواه الترمذي برقم (٢٤٣٨)، وقال: حسن صحيح غريب.
٣) رواه أحمد برقم (٢٢٦٦٥)، وابن ماجه برقم (٤٣٢٣)، وصحَّحه لغيره الألباني في صحيح الترغيب والترهيب برقم (٢٠٠٥).
٤) رواه أحمد برقم (٢٢٢١٥)، وصححه الألباني في صحيح الجامع الصغير برقم (٥٣٦٣).

أَسْمَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: { **إِنَّ لِي أَسْمَاءً، أَنَا مُحَمَّد، وَأَنَا أَحْمَدُ، وَأَنَا المَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الكُفْرَ، وَأَنَا الحَاشِرُ الَّذِي يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى قَدَمِي، وَأَنَا العَاقِبُ** }(١).

وَعَنْ أَبِي مُوسَى رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: سَمَّى لَنَا رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ: { **أَنَا مُحَمَّد، وأَحْمَدُ، والمُقَفِّي، والحَاشِرُ، ونَبِيُّ الرَّحْمَةِ، قَالَ يَزِيدُ، ونَبِيُّ التَّوْبَةِ ونَبِيُّ المَلْحَمَةِ** }(٢).

وَقَالَ أَيْضًا: { **أَنَا مُحَمَّد بْنُ عَبْدِ الله بْنِ عَبْدِ المُطَّلِبِ - قَالَ: فَمَا سَمِعْنَاهُ قَطُّ يَنْتَمِي قَبْلَهَا - أَلَا إِنَّ اللهَ خَلَقَ خَلْقَهُ، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ خَلْقِهِ، ثُمَّ فَرَّقَهُمْ فِرْقَتَيْنِ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِ الْفِرْقَتَيْنِ، ثُمَّ جَعَلَهُمْ قَبَائِلَ فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ قَبِيلَةً، ثُمَّ جَعَلَهُمْ بُيُوتًا، فَجَعَلَنِي مِنْ خَيْرِهِمْ بَيْتًا، وَأَنَا خَيْرُكُمْ بَيْتًا وَخَيْرُكُمْ نَفْسًا** }(٣).

لَقَدْ شَرَّفَ اللهُ تَعَالَى الْبَشَرِيَّةَ بِالنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَصَحْبِهِ الَّذِينَ بُعِثَ فِيهِمْ، فَكَانَتْ أَفْضَلَ طَبَقَاتِ أَهْلِ الْأَرْضِ، وشَرَّفَ بَلَدَهُ الَّتِي بُعِثَ فِيهَا فَكَانَتْ حَرَماً آمِنًا إِلَى يَوْمِ الدِّينِ، وَشَرَّفَ بَلَدَ هِجْرَتِهِ ؛ فَكَانَتْ أَحَبَّ الْبِلَادِ إِلَى الْمُسْلِمِينَ، وَشَرَّفَ

---

١) متفق عليه: رواه البخاري برقم (٤٨٩٦)، ومسلم برقم (٢٣٥٤).
٢) رواه أحمد برقم (١٩٥٢٥)، وابن حبان في صحيحه برقم (٦٣١٤)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع (١٤٧٣).
٣) رواه أحمد برقم (١٧٥١٧)، وصحَّحه الألباني في صحيح الجامع برقم (١٤٧٢).

بَيْتَ الْمَقْدِسِ بِصَلَاتِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ إِمَامًا لِجَمَاعَةِ الْمُرْسَلِينَ، وَشَرَّفَ يَوْمَ وِلَادَتِهِ؛ فَصَارَ يَوْمًا مَحْبُوبًا تَسْهُلُ فِيهِ الطَّاعَاتُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ، وَشَرَّفَهُ نَفْسَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَشَقَّ لَهُ أَسْمَاءَ مِنِ اسْمِهِ، وَاخْتَصَّهُ بِهِ، وَاكْتَنَزَهُ إِلَيْهِ، فَلَمْ يُسَمَّ به أحدٌ مع سبق ذكره في كتب المرسلين قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالُوا۟ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٦﴾ ﴾ (الصف).

وَعَنْ عَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { أُعْطِيتُ مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ}. فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ الله، مَا هُوَ؟ قَالَ: { نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ، وَأُعْطِيتُ مَفَاتِيحَ الْأَرْضِ، وَسُمِيتُ أَحْمَدَ، وَجُعِلَ التُّرَابُ لِي طَهُوراً وَجُعِلَتْ أُمَّتِي خَيْرَ الْأُمَمِ }(١).

فَقَدْ سَمَّى اللهُ نَبِيَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي الْكُتُبِ السَّابِقَةِ "أَحْمَدَ"، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ حَمَى اللهُ تَعَالَى هَذَا الِاسْمَ مِنَ أَنْ يَتَسَمَّى بِهِ أَحَدٌ. وَهَذِهِ كَرَامَةٌ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَشَرَفٌ.

قَالَ الْإِمَامُ الْعِرَاقِيُّ: « وَأَمَّا تَسْمِيَتُهُ بِأَحْمَدَ فَلَم يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ قَبْلَهُ ».

قَالَ الْقَاضِي عِيَاضٌ: « أَمَّا "أَحْمَدُ" الَّذِي أَتَى فِي الْكُتُبِ وَبَشَّرَتْ بِهِ الْأَنْبِيَاءُ فَمَنَعَ اللهُ تَعَالَى بِحِكْمَتِهِ أَنْ يُسَمَّى بِهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، وَلَا يُدْعَى بِهِ مَدْعُوٌّ قَبْلَهُ حَتَّى لَا يَدْخُلَ لَبْسٌ عَلَى ضَعِيفِ الْقَلْبِ، أَوْ شَكٌّ. وَكَذَلِكَ مُحَمَّد أَيْضاً لَمْ يُسَمَّ بِهِ أَحَدٌ مِنَ الْعَرَبِ وَغَيْرِهِمْ إِلَى أَنْ شَاعَ قُبَيْلَ وُجُودِهِ عَلَيْهِ السَّلَامُ وَمِيلَادِهِ أَنَّ نَبِيًّا يُبْعَثُ اسْمُهُ

---

١) رواه أحمد برقم (٧٦٣)، وحسَّنه الألباني في السلسلة الصحيحة برقم (٣٩٣٩).

مُحَمَّد، فَسَمَّى قَوْمٌ مِنَ الْعَرَبِ بَعْضَ أَسْمَائِهِمْ بِذَلِكَ رَجَاءَ أَنْ يَكُونَ أَحَدُهُمْ هُوَ، ﴿ اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُۥ ﴾ (الأنعام: ١٢٤)، ... ثُمَّ حَمَى اللهُ كُلَّ مَنْ تَسَمَّى بِهِ أَنْ يَدَّعِيَ النُّبُوَّةَ أَوْ يَدَّعِيَهَا لَهُ أَحَدٌ أَوْ يَظْهَرَ عَلَيْهِ سَبَبٌ يُشَكِّكُ أَحَدًا فِي أَمْرِهِ حَتَّى تَحَقَّقَتِ السِّمَتَانِ لَهُ وَلَمْ يُنَازَعْ فِيهِمَا »(١).

***

* **تَفْصِيلٌ وَبَيَانٌ** :

أَوَّلاً: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **إِنِّي لِي أَسْمَاءً** }:

١- الْوَاقِعُ أَنَّ أَسْمَاءَ رَسُولِ الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَثِيرَةٌ ؛ لِأَنَّهَا تَدُلُّ عَلَى نُعُوتٍ وَأَوْصَافٍ شَرِيفَةٍ فَاضِلَةٍ تُشْعِرُ بِشَرَفِ الْمُسَمَّى وَفَضْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَهُوَ كَذَلِكَ.

٢- وَالْأَسْمَاءُ: جَمْعُ اسْمٍ، وَهُوَ مُشْتَقٌّ مِنَ السِّمَةِ أَوِ السُّمُوِّ، وَالْاسْمُ يُطْلَقُ عَلَى مُقَابِلِ الْفِعْلِ وَالْحَرْفِ، وَعَلَى مُقَابِلِ اللَّقَبِ وَالْكُنْيَةِ، وَعَلَى مُقَابِلِ الصِّفَةِ الْمُشْتَقَّةِ ، وَيَكُونُ بِمَعْنَى الْعَلَمِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ الْمُرَادَ بِهِ هُنَا مَا شَاعَ إِطْلَاقُهُ.

ثانيًا: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { **أَنَا مُحَمَّد** }:

قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿ مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ﴾ (الفتح: ٢٩).

١- معنى اسمه « مُحَمَّد »، وسبب تسميته بذلك :

---

١) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى للقاضي عياض (١/ ٤٤٥- ٤٤٦).

• مُحَمَّد : اسم مفعول من الحمد، وهو يتضمن الثناء على المحمود مع إجلاله ومحبته وتعظيمه.

• وقيل: إن مُحَمَّدًا هو الذي كثر حمد الحامدين له مرة بعد أخرى.

• وقيل: مُحَمَّد لأنه محمود عند الله وملائكته ورسله وأهل الأرض كلهم حتى وإن كفر به بعضهم ، فإن ما فيه من صفات الكمال محمودة عند كل عاقل.

• وقيل: مُحَمَّد لأنه محمود الآثار والشرع، ذلك الشرع الذي ملأ الأرض هدًى وصلاحًا، وعلمًا وإيمانًا ، وبه فتح الله القلوب، واستنقذ الناس من أسر الشياطين، وضلالات الشرك والكفر.

• وقيل: لأنه محمود بما جبل عليه من مكارم الخلاق وعظيم الأفعال، فهو صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أعلم الخلق، وأعظمهم أمانة، وأصدقهم حديثًا، وأعلاهم عفوًا، وأجودهم يدًا، وأشجعهم حالًا. ليس بفظٍّ ولا غليظ ، ولا يقابل السيئة يمثلها ، بل يعفو ويصفح، فهو على خلق عظيم صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

فَرَسُولُ الله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ مُنْذُ حَمَلَتْ بِهِ أُمُّهُ آمِنَةُ وَبَعْدَ وِلَادَتِهِ وَقَبْلَ بَعْثَتِهِ وَبَعْدَ مَبْعَثِهِ وَهُوَ مَحَلُّ حَمْدِ النَّاسِ جَمِيعًا حَتَّى خُصُومُهُ وَمَنْ لَا يَدِينُونَ بِدِينِهِ. لِخِصَالِهِ الْكَثِيرَةِ الْحَمِيدَةِ.

٢- الْمُسَمَّى لَهُ بِذَلِكَ هُوَ اللهُ جَلَّ جَلَالُهُ فِي الذِّكْرِ الْحَكِيمِ فَقَدْ سَبَقَ فِي عِلْمِ الله عَزَّ وَجَلَّ أَنَّهُ يَحْمَدُ رَبَّهُ قَبْلَ حَمْدِ النَّاسِ لَهُ، وَكَذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ يَحْمَدُ اللهَ تَعَالَى بِمَجَامِعِ الْحَمْدِ حَتَّى يُشَفِّعَهُ فِي أَهْلِ الْمَوْقِفِ، فَيَحْمَدُهُ النَّاسُ، وَهُوَ صَاحِبُ لِوَاءِ الْحَمْدِ وَالْمَقَامِ الْمَحْمُودِ، فَهُوَ الَّذِي كَانَ عِنْدَ الله قَبْلَ أَنْ يُسَمَّى بِذَلِكَ مُحَمَّدًا.

وَلِذَلِكَ فَقَدْ قَالَ الْخَفَاجِيُّ الْمِصْرِيُّ: « وَأَسْمَاؤُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَوْقِيفِيَّةٌ، فَلَا يَجُوزُ أَنْ يُسَمَّى بِمَا لَمْ يُسَمِّهِ بِهِ اللهُ ، أَوْ يُسَمَّى هُوَ نَفْسُهُ أَوْ أَبُوهُ أَوْ جَدُّهُ »(١).

وَعَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّهُ « لَمَّا وُلِدَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَقَّ عَنْهُ عَبْدُ الْمُطَّلِبِ بِكَبْشٍ وَسَمَّاهُ مُحَمَّدًا: فَقِيلَ لَهُ : يَا أَبَا الْحَارِثِ، مَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ سَمَّيْتَهُ مُحَمَّدًا وَلَمْ تُسَمِّهِ بِاسْمِ آبَائِهِ؟! فَقَالَ: أَرَدْتُ أَنْ يَحْمَدَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَيَحْمَدَهُ النَّاسُ فِي الْأَرْضِ »(٢) .

وَقِيلَ: إِنَّ عَبْدَ الْمُطَّلِبِ إِنَّمَا سَمَّاهُ محمدًا لِرُؤْيَا رَآهَا: كَأَنَّ سِلْسِلَةً مِنْ فِضَّةٍ خَرَجَتْ مِنْ ظَهْرِهِ لَهَا طَرَفٌ فِي السَّمَاءِ، وَطَرَفٌ فِي الْأَرْضِ، وَطَرَفُ فِي الْمَشْرِقِ، وَطَرَفٌ فِي الْمَغْرِبِ، ثُمَّ عَادَتْ كَأَنَّهَا شَجَرَةٌ عَلَى كُلِّ وَرَقَةٍ مِنْهَا نُورٌ، وَأَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ يَتَعَلَّقُونَ بِهَا، فَقَصَّهَا فَعُبِّرَتْ بِمَوْلُودٍ مِنْ صُلْبِهِ يَتْبَعُهُ أَهْلُ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَيَتْبَعُهُ أَهْلُ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ؛ فَلِذَا سَمَّاهُ مُحَمَّدا مَعَ مَا حَدَّثَتْهُ بِهِ آمِنَةُ (٣).
وَهَذَا يُؤَكِّدُ مَا سَلَفَ، وَأَنَّ اللهَ تَعَالَى قَدْ أَلْهَمَ أَهْلَهُ أَنْ يُسَمُّوهُ بِذَلِكَ.

ثالثًا: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: { وَأَنَا أَحْمَدُ }:

وَرَدَ أَيْضاً فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ حِكَايَةً عَنْ سَيِّدِنَا عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ من قولِهِ: ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾، وَهُوَ مِنْ بَابِ التَّفْضِيلِ، وَقِيلَ: سُمِّيَ أَحْمَدَ؛ لِأَنَّهُ عَلَمٌ مَنْقُولٌ مِنْ صِفَةٍ وَهِيَ (أَفْعَل) التَّفْضِيلِ، وَمَعْنَاهُ أَحْمَدُ الْحَامِدِينَ.

---

١) نسيم الرياض (٢/ ٣٨٢ - ٣٨٣).
٢) الخصائص الكبرى للسيوطي (١/ ١٣٤).
٣) نسيم الرياض (٢/ ٣٨٢ - ٣٨٣).

قَالَ فِي الشِّفَاءِ : « فَمِنْ خَصَائِصِهِ أَنَّ اللهَ ضَمَّنَ أَسْمَاءَهُ ثَنَاءَهُ، فَطَوَى أَثْنَاءَ ذِكْرِهِ عَظِيمَ شُكْرِهِ. فَأَمَّا اسْمُهُ: أَحْمَدُ فَأَفْعَل مُبَالَغَةٌ مِنْ صِفَةِ الْحَمْدِ، ومُحَمَّد مُفَعَّل مبالغة من كثرة الحمد، فَهُوَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ أَجَلُّ مَنْ حَمِدَ وَأَفْضَلُ مَنْ حَمِدَ، وَأَكْثَرُ النَّاسِ حَمْدًا، فَهُوَ أَحْمَدُ الْمَحْمُودِينَ، وَأَحْمَدُ الْحَامِدِينَ، وَمَعَهُ لِوَاءُ الْحَمْدِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، لِيَتِمَّ لَهُ كَمَالُ الْحَمْدِ، ويشتهر فِي تِلْكَ الْعَرَصَاتِ بِصِفَةِ الْحَمْدِ، وَيَبْعَثُهُ رَبُّهُ هُنَاكَ مَقَامًا مَحْمُودًا كَمَا وَعَدَهُ. يَحْمَدُهُ فِيهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخِرُونَ بِشَفَاعَتِهِ لَهُمْ، وَيَفْتَحُ عَلَيْهِ فِيهِ مِنَ الْمَحَامِدِ، كَمَا قَالَ صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: { مَا لَمْ يُعْطَ أَحَدٌ } ، وسمّى الله أُمَّتَهُ فِي كُتُبِ أَنْبِيَائِهِ بِالْحَمَّادِينَ، فَحَقِيقٌ أَنْ يُسَمَّى مُحَمَّدًا وَأَحْمَدَ »(١).

رابِعًا: قوله صَلَّىٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: { وَأَنَا الْمَاحِي الَّذِي يَمْحُو اللهُ بِيَ الْكُفْرَ } :

المحو: الإزالة . قال البعض: المراد هنا محو الكفر من مكة والمدينة وسائر بلاد العرب، ويحتمل أن المراد المحو العام بمعنى الظهور بالحجة والغلبة، كما قال تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ (الصف:٩) .

وقيل معنى الماحي: الذي محيت به سيئات من اتبعه(٢). كقوله تعالى : ﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنفال) . وفي الحديث: { الْإِسْلَامَ يَهْدِمُ مَا كَانَ قَبْلَهُ }(٣).

---

١) الشفاء للقاضي عياض (١/ ٤٤٤- ٤٤٥).
٢) شرح مسلم للنووي (١٥/ ١٠٥).
٣) رواه مسلم برقم (١٢١).

وقولهُ: { **يَمْحُو اللهُ بِيَ** }: لأن الله تعالى هو الفاعل لكل شيء، والمقدِّر له، ورسوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو المرسَل لذلك والمسبِّب فيه.

و{ **يَمْحُو** }: فعل مضارع يفيد التجدُّد والاستمرار. وهذه بشرى بأن ذلك المحو للكفر والإبطال له لا يكون في حياته فقط بل يَتَجَدَّدُ عَلَى مَرِّ السِّنِينَ، وَقَدْ صَدَقَتْ نُبُوءَةُ رَسُولِ الله، ولا أدلَّ على ذلك من الذين يدخلون في الإسلام؛ طواعية وحبًّا إلى يومنا هذا.

- قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: { **وأَنَا الحاشِرُ** }: أي الجامع الذي (يُحْشَر الناسُ) بالبناء للمجهول، أي يُجمَع الناس.

{**عَلَى قَدَمِي**} بتخفيف الياء وكسر الميم على الإفراد. وقيل : بتشديدها مع فتح الميم على التثنية . قال النووي: كذا ضبطوه بالوجهين، وتقدير الكلام يُجمَع الناسُ على أثر قدَمي ، وهذا يفيد ما يأتي:

١- أن يكون صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ هو أول الناس خروجًا من القبر، ثم يكون قيام الناس بعد ذلك. فقوله { **عَلَى قَدَمِي** } أي بعد قيامي من قبري وظهوري.

وهذا يؤيده ما سبق من قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: { **أَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ** }(١).

فيقوم صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ قبل الناس، ويحشر قبلهم، ثم يحشرون بعد ذلك. ويؤيده

---

١) سبق تخريجه .

قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: { يُحْشَرُ النَّاسُ عَلَى عَقِبِي }(١).

٢- قيل: معنى {عَلَى قَدَمِي} أي على أثري وزمان نبوتي، وليس بعدي نبي، فيحشر الناس خلفه وعلى ملته دون غيره، فيكون قوله: {وَأَنَا العَاقِبُ}، كالتأكيد لما قبله (٢). ومعناه أن الله لا يقبل من أحد شرعًا ولا نجاة لأحد إلا باتباع ملته صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. فما من أمة ولا جيل من الناس إلا وهم مكلَّفون باتباعه، والسير على أثر قدمه صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ.

٣- قوله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ: { وَأَنَا العَاقِبُ } فسَّره صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ بقوله: { الَّذِي لَيْسَ بَعْدَهُ نَبِيٌّ }، فهو آخر الأنبياء بعثًا صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ. أرسله الله على عقبهم. أما نزول عيسى فيكون على شرعه(٣).

وَقدْ سَبَقَ ما رواه أبو موسى الأشعري رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ قَالَ: سَمَّى لَنَا رَسُولُ الله صَلَّىٰٱللَّهُعَلَيْهِوَسَلَّمَ نَفْسَهُ أَسْمَاءً مِنْهَا مَا حَفِظْنَا فَقَالَ: { أَنَا مُحَمَّد، وأَحْمَدُ، والمُقَفِّي، والحَاشِرُ، ونَبِيُّ الرَّحْمَةِ، قَالَ يَزِيدُ، ونَبِيُّ التَّوْبَةِ ونَبِيُّ المَلْحَمَةِ }(٤).

{ وَالمُقَفِّي } : بضمِّ الميم وفتح القاف والفاء المشدَّدة المكسورة.

قِيلَ هُوَ بِمَعْنَى الْعَاقِبِ . وَقِيلَ : هُوَ الْمُتَّبِعُ لِلْأَنْبِيَاءِ . يُقَالُ: قَفَوْتُهُ أَقْفُوهُ وَقَفَيْتُه

---

١) رواه مسلم برقم (٢٣٥٤).
٢) نسيم الرياض (٢/ ٣٨١).
٣) المصدر السابق.
٤) سبق تخريجه .

أَقْفِيهِ إِذَا اتَّبَعْتَهُ ، وَقَافِيَةُ كُلِّ شَيْءٍ آخِرَهُ، وَأَمَّا نَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ. وَنَبِيُّ الْمَرْحَمَةِ.

قَالَ النَّوَوِيُّ: « وَأَمَّا نَبِيُّ التَّوْبَةِ وَنَبِيُّ الرَّحْمَةِ وَنَبِيُّ الْمَرْحَمَةِ فَمَعْنَاهَا مُتَقَارِبٌ، وَمَقْصُودُهَا أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جَاءَ بِالتَّوْبَةِ وَبِالتَّرَاحُمِ »[1]، كَمَا قَالَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ بِٱلْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (التوبة). وَكَقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ : ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْاْ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ ﴾ (البلد).

*****

١) شرح النووي على مسلم (١٥/ ١٠٦).